

خالد محمد خالد



المقطم
للنشر والتوزيع



خالد محمد خالد



"أثمن من المعرفة"

"التصميم على أن نعرف"

المقطم

للنشر والتوزيع



القاهرة-مصر
٥٠ شارع الشيخ ريحان- عابدين

Tel: (00202) 7958215
7946109
Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

الإهداء

إلى النّاسِ كافّةً...

فى هذا الكتاب

مقدمة

فى صُحبة تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان، كتبت هذا الكتاب .. وفى صحبة هذا التفاؤل، أعيش - دومًا - وأحيا . .

وصاحبكم من الذين يربطهم بالإنسان ولاء غير مجذوذ، ولا محدود ..

وكل ما فى الناس من ضعف، لا يصرفنى عن رؤية الإنسان الكامن داخل ذواتهم، وصفوفهم .. والكادح إلى الكمال كدحًا فملاقيه .. !

صحيح أننى - أحيانًا - أبتئس بما يفعلون ، وبما أفعل، ويتراءى لى مشهد الفيلسوف الأغريقى "ديوجينز" حين صاح من فوق هضبة عالية :"أيها الناس" .. فلما سارعوا إليه هز رأسه أسفًا ، وقال:" لم أنادكم .. إنما أنادى الناس" .. !!

لكن الإنسان لا يلبث أن يظهر ، متربعًا على عرشه القويم فوق كل هذه الفوضى .. حاملاً مشعله المضئ وسط كل هذا الظلام ؛ فتذهب من فورها تلك الحسرات الكاذبة . وتتطاير غواشى الكآبة واليأس أمام عظمتة السامقة ..

* * *

وهذا الكتاب ليس قصيدة تحكى أمجاد الإنسان وتردد مفاخره .

إنما هو محاولة فى سبيل كشفه واجتلائه .

ذلك أن الكثير من مشاكل البشرية ، مرده تقطع الأسباب بينها وبين الإنسان ، وقعودها عن العمل الدائب البار من أجل اكتشافه ، واكتشاف مشيئته .

ولطالما أسلمت أمورها للبغضاء ، وللحظوظ الغاشيات .

وكثيراً ما كانت - ولاتزال - تبدو كجيش زاحف تاه عن قائده، وحيل بينه وبين معرفة خطته المثلى، واتجاهه السديد ، فتخبط، وتشتت ، واحتواه الضياع .

ولكن لحسن الحظ، أنها أدركت أخيراً، أنها لكى تضع أقدامها الراسخة فوق صراط قويم..ولكى تكتشف حقائق حياتها فى زمن وجيز، وبجهد يسير ..ولكى تظفر بكل

أغراض وجودها العظيم ؛ فلا بد لها أن تعـود بتفكيرهـا جميعـه إلى الإنسان ..

ولقد فعلت .. وكأين من رائد، وفيلسوف ؛ ومعلم أبلى فى هذا السبيل أطيب البلاء ..

بَيْدَ أن الجهود التى يتطلبهـا هـذا العمـل الجليـل،لا تـزال تطلب المزيد . ومـن ثـم فتبعـات الذيـن يستطيعون الإسـهام والمشاركة، تناديهم وتهيب بهم كى ينهضوا، ويتقدموا..

* * *

وهذا الكتاب، جهد متواضع، يتقدم على استحياء ليـأخذ مكانه بين الجهـود الكبـار، العاملـة مـن أجـل اكتشـاف الإنسان..اكتشـاف حقيقتـة..واكتشـاف مشيئته..واكتشاف الفرص الواجب توفرها له كى يبلـغ كمالـه الميسـور، ويـدرك مجده القادم..

وهو،أعنى الكتاب، يتتبع الإنسان ـ عبر نفسه ـ،وـ خلال حضارته ـ،ويبصره فى ـ آفاق فكره ـ،وفى ـ اختياره وحريته ـ

ولم أسأل نفسى قبل البدء فى المحاولة، إن كانت الظروف مهيأة بحيث أزاولها على النحـو الـذى أريـده، أم لا..إذ كـان حسبى أن أُلبِّى نـداء تبعـات فكريـة أمينـة، وأقـول كلمــات

أحسبها لازمة ومجدية ..

* * *

لقد سُئل "كونفشيوس" من أحد تلامذته هذا السؤال :

- كيف أؤدى واجبى تجاه الأرواح .. ؟؟

فأجابه "كونفشيوس" :

- عندما تتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء .. !!

وهكذا نحن .. لن نستطيع أداء واجباتنا تجاه كل شئ ، حتى نؤدى - أولا - واجبنا تجاه الإنسان .

وعلينا أن ندرك هذا جيداً .. فعلى إدراكه يتوقف كل ما نرجوا ، نحن البشر ، من تقدم وارتقاء ..

ولعلكم الآن تتساءلون: وما هذا الإنسان .. ؟؟ وأين نلقاه..؟؟

وهنا أستودعكم الله ؛ مخلّيًا بينكم وبين الكتاب

خالد

الإنسان عبر نفسه

لهذا خُلقنا ..

ومنذ أُعطينا هذه الأرض، وهذا الوجود، وهـذه الحيـاة.. وثمة من الأعماق البعيدة نداء لا يفتأ يتردد ويهيب: أن واصلوا السير دوما . وارفعوا مراسيكم وأبحروا إلى الغرض العظيم ..

الغرض العظيم ... ؟؟ وماذا يكون ... ؟؟

لطالما تبدَّى لنا فى نماذج شتَّى..فى الأرض تارة، وأخـرى فى السماء ..خارجاً عنا مرة،وكامناً فينا مرة أخرى ..

وفى كل هذه الاحتمـالات، كـان القلـق العظيـم الذكـى يدفع خُطانا، ويثير فينا قُوى الاستشراف إثارة عليمة واعية ..

سِرْنا مع القدَر، ومع الحظ، ومع الذكاء ..

زامَلْنا اليأس، وزاملنا الرجاء ..

ذقنا مرارة الإخفاق، وحلاوة الظَّفَر ..

عشنا على السفوح، وتذرَّيْنا القمم ..

واجهنا الفجـائع، وعانَقْنـا المبـاهج، وسـرنا على الشـوك حُفاة، وعانَيْنا الصقيع عُراة ..

وفى كل هذا وذاك. كانت راية الإقدام تخفق عالية، عالية..
معلنة وجود قافلة تحتدم شوقاً. وتتضرم رغبة. وتتفجر عناء، وذكاء، وعزمًا ..

وكان أعظم ما فينا، وأروع خصائصنا، الشوق ..

يالها من كلمة ممتلئة باسلة ـ هذه التى نلقيها اليوم دون أن نلقى لها بالاً .. !!

أجل .. كان الشوق رائدنا، وحافزنا .. ومن كل ظفر عظيم يُتاح لنا تحقيقه، كان ينبعث شوق جديد لظفر قادم، وتغرونا غبطة جديدة بمسئوليات تالية ..

ولكن، إلام كان هذا الشوق العظيم .. !!

لم ندرى، وإن كُنّا نُحِسّ ..

لم نكن نعلم، وإن كنا نُحْدِس ..

حتى انبثق ذات يوم من موكبنا الصاعد عمالقة تَتْرى فيهم الأنبياء الذين يُقلّبون وجوههم فى السماء فتلهمهم الهدى والفرقان

وفيهم الفلاسفة الذين يتساءلون: كيف ..؟، ولماذا .. ؟

وفيهم الفنانون الذين تُزجى أناملهم الرقيقة بسر الطبيعة وذكاءها ..

ومنهم العلماء الذين أخرجوا خِبْءَ المجهول، وأسَرَّ إليهم الكون بقوانينه ..

وتغشّانا من العجب ما تغشّى ..

لم يكن عجبُنا، كيف وُجد هؤلاء ..؟ وإنما كان :

كيف وُجدوا فينا .. كيف خرجوا من بين صفوفنا ..

كيف خُلقوا من طينتنا .. ؟؟

إنهم معنا على ذات الأرض التي نمشي جميعا في مناكبها.. وإنهم ليحملون مثلما نحمل ميراث جميع الأسلاف الذين سبقونا. فكيف تفوّقوا .. ؟ وكيف تألّقوا ..؟ وكيف اتخذوا طريقهم إلى السماء صاعدين .. ؟؟

وكان هذا الحِسُّ، نقطة انطلاق عارم. وبدأنا ندرك الغرض العظيم الذى خُلقنا لنَبْلُغه. وعرفنا الشئ الذى يسوقنا الشوق إلى لقائه ..

ولم يكن سوى الإنسان ... !!

ومنذ ذلك اليوم - فيما أحسب - بلغنا رُشدنا، وبدأنا نعرف كل شئ، حين بدأنا نعرف أنفسنا ودَوْرنا ..

لقد كان ميلاداً جديداً لنا - نحن البشر - حين أدركنا أن الأرض التى نعيش فوقها، تعمل، ويعمل كل شئ فيها تحت

زعامة الإنسان ..

هذا الإنسان الذى هو خليفة الله ..

القابض بيديه الماهرتين على شئون عالمه ..

هذا المتفوق الجسور .. بطل المآزق دومًا .. المتسلى بالأهوال أبدا.. الذى يبصر النظام الكامن فى الفوضى الماثلة.. والذى يقود مصايره إلى مشارفها العظيمة الواعدة .. !!!

هذا الكائن السلس المعقَّد،البسيط المركَّب .. الضئيل الجبار.. صانع الحركة الداهمة لكل عقبة .. جاعل المستحيل ممكنًا .. !!

ولكن هل عرفناه حقاً .. أم أننا لا نزال بسبيل أن نعرف.. وماذا يا تُرى وجدناه .. ؟؟؟

* * *

إن الطبائع النهائية للأشياء لم تُعرف بعد ..

والعلوم التجريبية نفسها لم تزعم لنفسها هذه المعرفة على الرغم من الأسرار الكثيرة التى أذاعتها، والخواص التى كشفتها، والقوانين التى وضعت كلتا يديها عليها، وعلى الرغم مما تتمتع به من تنبؤ ذكى واقتحام عليم .. !

ذلك أن تلك الطبائع النهائية، ترتبط بأزليات أمعنت فى

البعد وفى الخفاء .. ووراء ملايين العصور، بل وراء كل تصور للزمان وللمكان، تستقر وتكمن الطبائع الأولى للأشياء، والتى هى أيضاً الطبائع النهائية لها ..

ولقد اكتسبت الأشياء خلال تطورها المديد صفات تفوق كل حَصْر وعدد .. بلايين القشرات تغطى حقيقتها الكامنة، ومادتها الأولى .. وتكتشف الأجيال المتساوقة من البشرية، من هذه القشرات عدداً مناسباً لذكائها ومقدرتها.. وتصيح فى زهو الانتصار:"ها .. قد بلغت القاع"..والقاع منها بعيد حدّ بعيد. !!

والطبيعة النهائية للإنسان مثل ذلك .. قارَّة عظمى، لا تزال مجهولة، وما أُوتينا من العلم بها إلا قليلا .

ولقد ذهب علماء الدين، وعلماء النفس، وعلماء الحياة، يجوسون خلال تلك القارة الغامضة، ولا يزالون يفعلون .

أما الدين، فقد رأى فى الإنسان رأياً حصيفا ..

فهو إذ لم تُتح له الوسائل التى أُتيحت للعلم، فقد بلغ بالإنسان شأواً عبقرياً بعيدًا .. وفى شمول لا يأبه بالتفاصيل أعلن رأيه فى الإنسان. فهو خليفة الله فى الأرض .. وهو الجرم الصغير الذى انطوى فيه العالَم الكبير ..هو مَجْلى مشيئة

الله ومظهر عظمته واقتداره .. !!

والتصور الديني حين يصل الإنسان بالله على هذا النمط الباهر؛ إنما يُحرز تقدماً علمياً وفلسفياً. فهو يعترف ضمناً بلانهائية الإنسان.؛ لأن الله سبحانه لا ينتهي ...

ويجئ العلم .. علم الحياة، وعلم النفس، وعلم وظائف الأعضاء، فيضع الإنسان تحت مختبراته. وتَفْجَـأه أسرار وألغاز لاتؤذن بانتهاء .

يقول العالم الدكتور "الكسيس كاريل"[1] :

"إننا لا نفهم الإنسان ككل .. ! إننا نعرفه على أنه"
"مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها"
"وسائلنا . فكل واحد منا عبارة عن موكب من"
" الأشباح تسير في وسطه حقيقة مجهولة.."
" وواقع الأمر أن جهلنا مطبق.."
" فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين"
"يدرسون الجنس البشري ، تظل بلا جواب .. لأن "
"هناك مناطق غير محدودة في عالمنا الباطن ، ولاتزال "
"غير معروفة .."

---

[1] كتاب "الإنسان ، ذلك المجهول" .

"فنحن مثلا لا نعرف حتى الآن كيف تتحد جزيئات"
"المواد الكيماوية كي تكون المركب والأعضاء"
"المؤقتة للخلية.."
"كيف تحدد المُوَرِّثات التي تحتوي عليها نواة البويضة"
"الخصبة ، مميزات الفرد الذي ينبثق من هذه البويضة .."
"كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها .. "
"ما هي طبيعة تكويننا النفسي ، والفسيولوجي .. "
"إن العلاقة بين الشعور والمخ ، لا تزال لغزاً .. "
"ولا تزال بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن"
"فسيولوجية الخلايا العصبية ."
"إننا ما زلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات"
"الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات، والأعضاء،"
"ووجوه النشاط العقلي والروحي ..."
"وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها يمكن أن تلقى في"
"موضوعات بالغة الأهمية بالنسبة لنا ، بيد أنها ستظل"
"جمعياً بلا جواب .."
"فمن الواضح .. "
" أن جميع ما حققه العلم من تقدم في دارسة

"الإنسان ما يزال غير كاف وإن معرفتنا بأنفسنا لا تزال"
"بدائية إلى حد كبير ..."

إن هذه الكلمات لا تعنى ــ طبعاً ــ أن العلم عاجز .. لكنها تعنى أن الإنسان حقيقة ضخمة، وعالَم كبير ، وأنه ليس من البساطة بحيث تكفى لإدراكه تلك الجهود التى بُذلت .. بل لابد من مواصلة مُضنية لمحاولات فهمه ، وكشف حقيقة .

ولابد - أيضاً - من ترويض أنفسنا على تقبل الملاحظة الموضوعية التى تجعل الإنسان غَرضَها وموضوعها . والتى تعطينا نتائجها أصدق صورة لحقيقة الإنسان .

إن الدين ، والعلم ، والفلسفة ، والفن ، والأدب . قد أبلَوْا جميعاً بلاء صادقًا فى تمهيد الحياة للإنسان وتعبيد طرائقها .. أو قولوا إن الإنسان عن طريق هذه القُوى قد وطَأ أكْناف الحياة لنفسه.. وعن طريق هذه القُوى قد جلَّى ذاته وأظهرها ، ولايزال يُجليها ويُظهرها .

وإن كلمة - إنسان - لتبلغ من العظمة مبلغاً يجعل كل إضافة لها لغواً ..

وتبلغ من الجلال مبلغاً يجعل نعته بالسوبرمان فُضولاً ..

"السوبرمان" .. وصف نخلعه على الإنسان لنُرضى به جهلنا بحقيقة الإنسان ، ولنعبِّر به عن أمنيات غريرة ، وإن تك طيبة ، لمستقبلنا نحن البشر .

ولكن لماذا "السوبرمان" .. ؟؟

لماذا ، الإنسان الأعلى .. ؟؟

أولا يكفى أن يكون الإنسان ، وحسب .. ؟؟

وهل وُجد الإنسان ، حتى نتعجل مجئ الأعلى .. ؟؟

فى رأيى أن الإنسان لم يتم بعد ظهوره .. وهو حين يتم ظهوره ، يجئ متضمنا كل كماله .. ويصير وصفه بالأعلى ، شبيهاً لوصفنا الشمس بالمضيئة ..!

ثم إن هذه الكلمة "السوبرمان" تكاد تخدعنا عن حقيقة الإنسان التى يجب أن نتقبلها ونحترمها بكل ما فيها من أشواك وأزاهير ..وتكاد تسئ إلى الجهود البارزة العظيمة التى بُذلت ، وتُبذل من أجل ظهور الإنسان .

إن الناس الذين عاشوا فى العصر الحجرى ، والناس الذين سيحيون بعد عصر الكواكب والفضاء ، سواء فى التمجيد والتكريم .

والإنسان فى بداية تطورنا ـ على الرغم من جهله وعجزه

وفوضاه . لايقل شأواً عن الإنسان القادم فى نهاية التطور مع سُمُوق مكانته ومثواه ..

بل الإنسان القادم متضمن للإنسان الذاهب وهو ابنه وحفيده، وتاجه .

من أجل هذا نُولى وجوهنا فى هذا الكتاب شَطْرَ الإنسان. الإنسان الذى ليس أدنى، وليس أعلى .. والذى لم يترك إلى جواره فراغاً ولا مكاناً لأى وصف مهما يكن شامخاً وعظيماً .

الإنسان الذى لايستطيع أحد أن يحتكر الحديث عنه ـ لارجل الدين ، ولا رجل العلم، ولا رجل الفلسفة .. لأنه أكبر من هؤلاء جميعاً، وأرحب آمادًا، وأفسح أبعادًا من العلم، ومن الفلسفة ..

الإنسان الذى بدأ ظهوره ولم يتمَّ بعد .. والذى يتجلى شيئاً فشيئاً، سائراً عَبْرَ نفسه، طاويا أعماق كيانه الأزلى أو الشبيه بالأزلى على كل إمكانياتِ تفوقه واكتماله .

هذا الذى يُحوِّل بُؤسه إلى عظمة ، ورذائله إلى فضائل ، وعجزه إلى قوة ، وانحطاطه إلى رفعة .

هذا الذى يُفرغ أمسه فى يومه .. ويهْدى يومه إلى

مستقبله..

هذا الذى عندما تجلّى فى سقراط وأفلاطون ، وعمر بن الخطاب وماركوس أو ربليوس ، وبوذا وغاندى ، وهيجل وابن سينا ، وشكسبير والمعرّى ، وأينشتاين وابن الهيثم ، وديكارت وابن رشد والفارابى ..لم يكن يعنى أنه حقق بهذا التجلّى كماله. وإنما كان يعنى أنه يختبر المعازف التى ستعزف ذات يوم، وإلى الأبد ، السمفونية الكبرى واللّحن العبقرى العظيم .!!

أجل .. كانت هذه العبقريات كلها ـ عيِّنات ـ يكتشف بها طبيعته واستعداده ، ويدرس عليها فطرته ، ويستبين بها وجْهته ، ويختبر صلاحيته .

وإنه لماضٍ إلى يومه الموعود .. اليوم الذى يرفع فيه جميع أفراد نوعه إلى مستواه.. اليوم الذى يصير فيه كل فرد، إنسانًا. وتصبح فيه كل الخصائص العظيمة التى تجلت فى عباقرة البشر مجرد طبيعة عادية لكافة أفراد البشر .!!

هذا هو دور الإنسان ..

هذه هى رسالته التى من أجلها يعمل .. هذه هى التبعة التى استحق بها الزعامة على الأرض بما فيها .

هذه هى المخاطرة الكبرى الظافرة التى كتبها الله له ... والتقى عندها بأسرار الكون مُسخّراتٍ بأمره ، مُسْرعاتٍ إلى مشيئته .

* * *

صحيح أنّه كان ذلك الحيوان الذى يغطيه الشعر فى الغابة ... والذى يجوب الأرض سالباً ناهباً، يبحث عن صيد يسكت سُعَار جوعه ...

صحيح أنه تعلم ذات يوم تنظيم حياته من مخلوقات أدنى منه وأضأل ... وأن بعض أساتذته فى ذلك الزمان ، كان الكلب ، والغراب ، والنمل ، والنحل ، والعنكبوت ...!!

صحيح أنه عاش أدهاراً طويلة، بدائيًا فظاً، لاتزيد مظاهر حضارته عن الهروات، وحبال الصيد، والرماح والمقاميع ...!!

بل صحيح أن أشهى وجبات طعامه كانت ـ ذات يوم ـ تلك التى تتكون من اللحم البشرى الذى أُتقن شِوَاؤه ...!!!

وصحيح أنه استعبد الرقيق ، فلما ترقىَّ .. استبدل بالرقيق الأجراء الكادحين ...!

وصحيح أنه شحذ للقتال مخالبه وأظفاره ... فلما ترقّى استبدل بها الحديد والبارود ...!

وصحيح أنه مارس السَّبْى واغتصاب النساء ، فلما ترقى استبدل بهما المخادنة والاحتظاء ..!

صحيح أنه عاش طويلاً فى أحضان الوحشية والفوضى..

صحيح كل هذا ..

وحق أكثر من هذا ..

ولكن ماذلك جميعه، وأضعافه معه، بقادر على أن يُخفى عنا فضائله.. فضائل هذا الإنسان العظيم .. صانع المعجزات : مبتكر الثقافة .. مُبدع الفن .. مُسيِّر التاريخ ..

هذا الذى انبثق منه موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وبوذا .

هذا الذى صنع الحضارات الفذة عَبْر آلاف الأعوام .

هذا الذى ظهر فى مصر القديمة، وفى أثينا، وفى روما ، وفى بغداد،وفى قرطبة وأوربا..ألا إن الإنسان لم يَكْتشِف بعد، إلا عن القليل من عظمته، وإلا عن الأقل من مواهبه وقُدراته .

وإنه لَكادح إلى أغراض وجوده كدْحاً ، فَمُلاَقيها ..

فلنمض معه، لننظر كيف يمضى عبر نفسه وصَوْب مصيره.

* * *

لعل أمجد لحظاتٍ فى حياة الإنسان ، تلك التى اكتشف

فيها وجوده ، واكتشف مع وجُوده حريته ، واكتشف مع حريته مسئوليته .

ولقد كان هذا الكشف من أعظم آيات حدسه، وأذكى أمارات فطرته .

فعَن غير وعى وتفكير ارتبط الثلاثة في روعه ـ الوجود ، والحرية ، والمسئولية ـ وهو بعد لايزال يحبو فى دنياه .

عندما ألفى نفسه وحيدًا فى أرض موحشة غامضة ..

عندما جاع ، وصاحت به أمعاؤه المُمْحِلة ..

عندما شردَّت أمنَه،وزلزلت سكينتَه الوحوشُ الكاسرة ..

عندما لَفَحته سَبرَات البرد ،وبَعثرته عاصفة تِلْوَ عاصفة عندها، تَلَفّت يَمنة ويسْرة ..قدَّامه ومن ورائه،فما وجد أحدًا سواه..

لم يستطع أن يتصور نفسه وحيداً مُفرداً في كل هذا الفضاء والخَواء .. فذهب يقلب وجهه ..

وكان عليه أن يلبث زماناً طويلاً قبلما يُحِسُّ أو يعرف أن له مؤنساً ومعُيناً ..

ولكن عوامل إفنائه ،وتقويضه لم تكن لتنتظر ،ومن ثمَّ وجد نفسه مَسُوقا للعمل وحده .. ولا بد أنه تهيَّب المخاطرة

بادئ الأمر ، لكن الأهوال الزاحفة أُلقت عليه مسئولية دفعها ونادت كل قدراته للمقاومة .. وهكذا تحركت يداه ، ورجلاه، واحتشدت خلايا مخه، وأخذت مكانها على أرض المعركة .. ولوَّح للمخاطر بقبضته العارمة، فولَّت أمامه مذعورة ..كان يومئذ حراً لأنه لم يكن ثمَّةَ دولة ، ولا قانون، ولاملكية..

وكانت التجربة هى دينه ، وقانونه .. يمارس الشئ بدافع من فطرته ، فإذا استبان له نفعه أقبل عليه وأضافه إلى قائمة الأشياء التى ينتفع بها ويعتمد عليها .

وكانت مسئوليته عن نفسه ، وعن سلامته وبقائه ، هى التى تحدد له مفهوم حريته . وهكذا ارتبطت الحرية بالمسئولية فى وجدانه من قديم بل وُجدت حريته كضرورة تقتضيها مسئوليته : أى أنه لكى يكون مسئولاً، يجب أن يكون حراً ، وإلاتقوَّض بناء مسئوليته ، وانْهار بالتالى وُجوده ..

وكان هذا الرباط الفطرى بين حرية الإنسان ومسئوليته. نقول:كان ولايزال أصدق البراهين على أنه وُجد ليبقى . ويصعد ويسود .. ولكن كيف وَجَد الإنسان مسئوليته ، ومن أى الأنباع تلقَّاها .. ؟؟

إنها نبعت من ذاتـه المتفاعلـة مـع مـا حولها .. أو بتعبير آخر، نبعت من علاقاته بالأشياء المحيطة به ، والتى تملأ عالمه ..

علاقته بـالمجهول الـذى يملأ فـؤاده رَغَبـاً ورَهبـاً ـ حمَّلتـه مسئولية البحث عن كُنهه ، واستطلاع غيْبه ..

علاقته بنفسه ـ حمَّلته مسئولية توفير حاجاتها الأساسية من مطعـم وملبـس وصيانـة .. كمـا حملتـه مسـئولية العمـل المشترك بين أفراد النوع كله ..

علاقته بالأخطار التـى تهـب عليـه فـى صـورة أعاصير ، وتجرى حولـه فـى صـورة وحـوش مفترسـة ـ حمَّلتـه مسـئولية إعدادها لتكون مقرًا صالحاً لطول الثَّواء ..

ولقد مارس مسئولياته فى كدْح عظيـم حتـى إذا اطمـأنَّ إلى قدْرٍ كاف من السيطرة على بيئتـه ، ودَعَـم الزمـنُ الطويـل علاقته بهذه البيئة ، شرع يفلسف هـذه العـاقلات ويحلّلهـا .. ومن ذلك الحين بدأت متاعبه الجليلة ، وهمومه النبيلة .

وإنها لإحدى المفارقات التى تملأ حياتنا ففى الوقت الذى نبدأ فيه نعرف ، نبدأ كذلك نتعـب .. ذلـك أن المعرفـة ـ أى معرفة ـ تبدو دائماً وكأنها ولادة بين مخاضين ..

فمسئولياتنا تُلحّ علينا كى نعرف ..

ومعرفتنا تُولّد مسئوليات جديدة ..

والمسئوليات الجديدة ، تنجب بدورها معرفة أخرى .. وهكذا ولقد كانت تلك العلاقات تنتشر وتتمدد ، كلما قلّب الانسان فيها بصيرته وكل فهم جديد لها ، كان يمنحه سلطاناً عليها ، وفى نفس الوقت يمنحها سلطاناً عليه .

وهكذا بدأ الإنسان يواجه مأزق حياته كلها . ومن عجب أنه بدأ كذلك فى نفس اللحظة ولنفس السبب يُمسك بجميع الزمام .. !

كيف صنعت المعرفة مأزق الإنسان ؟؟

قلنا: إن موضوع المعرفة تَمثُّل أول ما تمثل فى علاقاته بالأشياء ... وهذه العلاقات تنطوى على قدْر كبير من الغموض والتناقض .

فهو - مثلاً - لكى يسيطر على الظلام ، يصطنع شعلة النار، تضئ له ظلماته المخيفة .. ولكن هذه الشعلة المضيئة النافعة ،تتحول أحياناً إلى حريق يلتهّم كوخه،ويدمر معيشته ..

وهذا البحر الذى سمح له أن يطفو فوق سطحه فى زورق ذى مجداف وشراع ؛ والذى يطعمه من أسماكه لحمًا طريًا ، يرسل إليه مَداً طاغياً يبتلعه ويطويه تحت

أمواجه،ووسط غياهبه..

وهذا المطر - أيضاً - يهطل غيثاً يرطّب صحراءه اللاهبة ، ويسقى أرضه المجدبة .. بيد أنه مرة أخرى يسيل طوفاناً يقضى على ما عملته يداه ، وهو فى حاجة إلى كل ما حوله على الأرض من مخلوقات وكائنات يدعم بها وحدة البقاء .. ولكن شيئاً آخر يدعوه إلى التنافس والمناجزة ، اسمه تنازع البقاء .. !

وهو لكى يحصل على حاجته من شئ ما .، يعطى ما يساوى قيمته من شئ آخر .. !

وهو إذ يغادر الصيد إلى الزراعة ويفرح بما سيلقاه من استقرار وسلام وإخاء ، إذا بالوضع الجديد يثمر نقيض ما كان منتظراً منه .. الرّق والاستعباد .. !!

ثم هو يأخذ بنظام التوريث ليترك لذريته الضعاف ما يصون حياتهم.. فإذا هو يفضى إلى خلق امتيازات،وطبقات كاسلة، لاهية .

كل الأشياء حوله ذات وجهين .. وكأنّ الحياة كلها تعمل داخل الأضداد وتعتمد على التنافر والتناقض مثل حركة قلب الإنسان نفسه..انقباض .، وانبساط..ثم انقباض .، وانبساط .. وبهذين الضّدين تأخذ دورة الدم مجراها، وتبقى

للكائن الحى حياته.. أو مثل العلاقة الحسابية(+) فهى خطان متعارضان ينتجان حاصل الجمع كله.. لكأنما حركة الحياة .. ضربة رأسية بالطول.، وضربة أفقية بالعرض.. تناقض دائب وَلُود ...

وفى هذا التناقض واجه الإنسان مأزقه .وفيه أيضاً عثُر على الكثير من وعيه ومن هنا دخلت مسئولياته مرحلة جديدة وصارت تتمثل أكثر ما تتمثل فى :

- اكتشاف علاقاته الصحيحة بجميع الأشياء ..
- إدراك الفلسفة الكامنة ، فى التناقض الماثل ..
- السيطرة على عملية التناقض فى كل مظانّها، وتوجيهُها دوماً صوْب المصير الإنسانى..

إن احتياجات الإنسان لاتنتهى ..والتعبير عنها كذلك لاينتهى .

احتياجات كثيرة ومعقدة..والتعبير عنها كذلك كثير ومعقد. ولطالما أحدث ذلك، النزاع والخلاف بل والحروب .

فماذا هو فاعل اليوم، وقد بلغ رشده، ووجد وعيه ..؟؟

لقد توافر الإنسان على دراسة نفسه وعالمه منذ وعاهما . وانتهت خطوط تفكيره المتوازنة حينا، والمتداخلة أحياناً إلى

مرحلة فكرية معاصرة تبدو لنا متعددة السِّمات، مختلفة الاتجاه.

فمنذ تكلم "هيجل" معلناً فكرته عن التطور التاريخى أو النتيجة المركبة، اتضح طريق صَعْبَ على الفكر الإنسانى أن يتجاهله ..

وجاء التفكير الماركسى ليعيد تخطيط الفلسفة الهيجلية . وليلوى زمام الحركة التاريخية شطر التغير الثورى .. نافضا كلتا يديه من المثاليات كلها معلناً أن علاقات الإنتاج دون سواها هى التى تقرر مصير الجماعة الإنسانية، وتقود زحفها . مؤيداً صراع الطبقات باعتباره الحافز إلى الشيوع المنظم ، وبالتالى إلى الثقافة النابعة من التفكير العلمى والمادى ، والتى تضع بدورها أو تكتشف أخلاق المجتمع الجديد .

* * *

ولكن تفكيراً آخر معاصراً، يعلن أن أزمة الإنسان الكبرى ماثلة فى تمزُّق صفوفه ، هذا التمزق الذى يفضى إلى الحروب والدمار ، وينشر الأنانية البغيضة .. ومن ثَمَّ فلابد من وحدة عالمية تحمل لواء حضارة عالمية واحدة تقوم على السلام ، والرخاء، والمساواة .. والمساواة فى هذه الوحدة لا تتحقق تلقائياً، ولا تثمرها الموعظة الحسنة، ولا التغيير الثورى .. وإنما

تجئ بفرض رقابة اقتصادية، عالمية، فدرالية ..

كما أن السلام ، والرخاء لا يجيئان عَفْـو الصدفة ، وإنمـا عن طريق التربية التـى تلقـن الإنسـان أنه ليس مواطنـاً عالمياً وحسب .. بل هو أيضاً مواطن تاريخى ، بينه وبين كل عصور التاريخ أواصر قربى ونسب .. ويتم ذلك كله فى نظام يعتمـد على الديمقراطية والحرية .

* * *

وينهض تفكير ثالث، مـردداً مـن جديـد صيحـة سـقراط "اعرف نفسك" ..

ومشـكلة الإنسـان الأساسـية فـى هـذا التفكـير ليسـت اقتصادية ولا سياسية، ولا اجتماعية.بل هى روحية خالصة ..

فالقحط الدينى والروحى الذى يعانيـه الضمـير الإنسـانى هو الذى يهدد حياته ..

لقد صعد العلم بالإنسان إلى القمة، ولكن أخلاقه أعادتـه إلى السفح .. !!

إنه ـ مثلاً ـ اكتشف الطاقة الذرية، وبدلا من أن يحول بها أرضـه المكـدودة إلى فـردوس بهيـج.. ذهـب وألقاهـا علـى "هيروشيما"و"ناجازاكى" فدمرهما وأهلهمـا تدمـيرًا .. فتغيير

القلب الإنسانى، لاتغيير النظم، ولا تغير المجتمعات، هو مناص الخلاص.. والأخذ بروح الدين، ونبذ شهوات الأنفس هما سبيل النجاة ..

نعم .أن يضع الإ نسان يده فى يد الله.. وألايجعل غرض حياته التعبير عن ذاته، بل إنكار ذاته.. وأن ينذر نفسه لحقيقة روحية سامية ..

هذا - وحسب - هو مايفتقده الإنسان اليوم لكى ينهض ويبلغ كتأبه أجلَه .

* * *

وفى مكان آخر ، ينهض تفكير آخر لايقول :"اعرف نفسك"وإنما يصيح :"أوجد نفسك" ..!

لكى نعرف أنفسنا ، علينا أن نتأكد من وجودها ..

إننا أُعطينا العقل لنفكر به، فألغيناه .. وأُعطينا الغرائز لنشبعها فقمعناها .. وأُعطينا الحواس لنطل منها على العالم الموضوعى فعطلناها ..

إن الإنسان فرد . قبل أن يكون مجتمعاً .ومن حقه الكامل أن يختار قيمه وطريقة حياته .. ومن وجوده المحض .. وجوده الذاتى، يستمد معاييره الخاصة .

ويرى هذا التفكير، أن مشكلة الإنسان تتمثل فى أن حياته اليوم أشبه ما تكون بزقاق مسدود ، تَغْشاها "طمأنينة زائفة" وتحركها "رَتَابة مُمِلّة" وأنه ـ أى الفرد الإنسانى ـ يعيش مُمثّلا فى دور مفروض عليه ، ويقضى عمره تائهًا وسط مخلوقات تائهة .

أى أنه لا يعيش حياته ، وإنما يمثلها ..

والخلاص إذن أن يدرك الإنسان أنه خالق نفسه، وأن يحيا فى نطاق "قَدَره الشخصى" الذى يصنعه هو لا "قدره الاجتماعى" الذى يريده له المجتمع ،وأن يخرج حياته من رتابتها المملة ودورها المصطنع ..

إن ماهية الإنسان أمر ثانوى بالنسبة لوجوده . أو هى أمر تالٍ للوجود ..

والمفهوم الصحيح للوجود ، هو الاختيار .. وهو القدرة على تخطى الوضع الماثل ومجاوزته .

* * *

ويعلن تفكير آخر أن مشاكل الإنسان جميعاً، قد تسلمتها اليد البارعة ، يد العلم ..

والعلم وحده هو الذى سيقود الإنسان إلى غايته ،

والأحياء قد برهنت بعد الشوط الظافر الذى قطعته على جدارتها بحمل العبء كله .. والعلم سيجعل المشاكل الاقتصادية كلها مباهج ومناعم حين يوفر من الرخاء مالا يخطر ببال .

إن العلم الذى أحال الصحراء إلى مزارع .. والذى أنجب من الأنعام الهزيلة سلالات فذة تعطى الواحدة منها من اللبن فى حلبة واحدة ، مثلما كانت تعطيه سبعون أو ثمانون .. والذى أخرج من الفول السودانى وحده قُرابة مائتى نوع ما بين غذاء، وكساء ، ودواء .. والذى بسط يده إلى القطب المتجمد ، داعياً إياه إلى الاستسلام كى يستثمره ويزرعه .. والذى أنزل كثيراً من الأمراض العصيَّة عن عروشها الباغية ، وخفف نسبة الوفيات ..

العلم الذى عكف على العقل الإنسانى ، وعلى النفس البشرية وبدأ يكشف أسرارها . ويسبر غورها .. والذى صعد بالآلة وبالصناعة إلى ذروة العمل والإنتاج .

العلم الذى طار إلى القمر، ثم جاوز القمر إلى الشمس .. هذا العلم هو الذى يحمل البلسم الشافى لكل متاعب الإنسان ومصاعبه، وهو الذى سيقوم بتطوير الإنسان تطويراً كاملا فى

كل مجالاته الخلقية، والفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية .

ومشكلة الإنسان إذا كانت له اليوم مشكلة، هي ضعف ثقته بالعلم وضعف قدرته على مسايرة العلم .. ولكن حتى هذا الأمر، سيتولى العلم علاجه، ولَيرفعن الإنسان إلى مستواه في يوم قريب..

هذه تقريبا ـ هي الفلسفات المعاصرة التي تعمل في خدمة الإنسان ، وهذا هو منطقها .

فأين الإنسان من كل هذه الفلسفات ...؟؟

إنه خالقها جميعاً ، ومُبدعها .

ولقد كانت كلها مستقرة في رُوعه وفي فطرته منذ أيامه الأولى على هذه الأرض وفي أشد عصوره الماضيات جهالة وحُلكة .

وإنا لنستنبط من هذه الظاهرة رأيًا نحسبه صحيحاً .. هو أن شر ما يصيب البشرية من تمزق وخلاف، إنما يحدث يوم تعزل الإنسان عنها وتنساه .

فمعظم نزاعنا الديني ، والعلمي ،والمذهبي ، كثيرا ما يسببه أننا نتعامل كما لو كنا عوالم شتى متنافرة .. ولسنا صفاً واحداً تتوسطه حقيقة معلومة هي الإنسان ..

إن الفلسفات ومناهج التفكير التى عرضناها آنفا تمثل كل ألوان الصراع الفكرى القائم فى مجتمعنا الإنسانى اليوم .. فلننظر الآن كيف أن"الإنسان" يتضمنها جميعًا، ويتطلبها جميعاً كحاجات أساسية له ولحياته منذ وعَى نفسه، وليس اليوم فحسب ..

فالنزعة الروحية مثلاً، تعتمل فى الوجدان الإنسانى من قديم عهده، كما تعتمل فى وجدانه من قديم، قيمةُ التركيز على وجود وقيمة الإنتاج وفاعلية علاقاته، وقيمة العلم والتجربة.

كيف حدث هذا .. ؟؟

فلنفحصها جميعاً . واحدة واحدة ..

* * *

لقد أحسَّ الإنسان قديمًا، وقديمًا جداً، حاجته إلى الدين، فذهب يتكشفه .

وقد تبدو كلمة ـ يتكشف ـ هنا، انحرافاً وتجديفاً .

قد تكون عَسِيرة الهضم لَدَى أولئك الذين يرون أن الدين هو الذى اكتشف الإنسان . ولكن الحقيقة هى ما نقول: إن الإنسان اكتشف الدين .. ولكأنما اختارت الحكمة الإلهية له

هذا الطريق، ولسوف نوضح هذه النقطة فى فصل قادم .
والآن نضْرب لما نقول مثلاً. تقدمه لنا وثيقة لا تكذب هى نبأ إبراهيم فى القرآن الكريم .

وإبراهيم ـ كما نعلم ـ هو الأب الروحى للديانات الثلاث اليهودية، والمسيحية، والإسلام .

لقد رأى إبراهيم القمر بازغًا يتلألأ، وكان آنئذ يبحث عن رب يعبده . ويشبع بعبادته حاجة ملحة فى نفسه، ويملأ فراغا أضْنى وُجدانه قلقًا وخوفًا .. فأشار للقمر الذى بهره نوره، وقال : ﴿هذا ربى﴾ ..

ولكن القمر أَفَل .. وأدركته الليالى التى يختنق فيها ضوؤه ويتحول إلى مُحاق.. فهزّ إبراهيم كتفيه آسِفًا ..وقال : ﴿لاأُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ ..

واتجه صوْب الشمس؛ فلما رآها بازغة، قال:﴿هذا ربى. هذا أكبر﴾ ..

فلما أفلت ، قال ياقوم إنى برئ مما تشركون ..

ومضى إبراهيم يبحث عن دينه، بل يبحث عن ربه وإلهه.

وإنه ليتصور الإله كمالاً مطلقاً.. ولقد ابتغى الكمال فى أقرب مظانّه، هو القمر المضئ .. ثم فى الشمس المشرقة باعثة

الدفء والحياة. حتى إذا اكتشف حاجتهما إلى الكمال . ضـنَّ عليهما بالربوبية ..

ولم يكُفَّ إبراهيم عن بحثه واستشرافه، لأن حاجة في أعماق نفسه البعيدة تحفزه وتدفعه ــ وإبراهيم في بيئته وفي عصره، كان يمثل أعلى مناسيب الذكاء الإنساني .

انظروا طريقته في البحث عن ربه ..

إنه مع كونه مُخبتاً عابداً، يبحث بحث فيلسوف حر ..

يفتش في الأنهار ، والبحار، والزروع وبين الخصب والنماء، حتى إذا لم يجد في الأرض ما يمثل صورة الكمال الإلهي عنده، يتجه إلى السماء ويركز بصره على أكبر أجرامها.. حتى إذا لم يحققا له مثله الأعلى، ينفض عقله وقلبه من المجسمات جميعاً .. ويشير إلى السرّ الأكبر الكامن في الحياة وفي الكون، ويهتف وقد وجد يقينه :

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾

مَنْ هذا الذي فطر السموات والأرض ..؟؟

ما صورته ..؟ ما مشهده ..؟ ما مكانه ..؟

ذاك شيء لا يشغله الآن.. إنما يعنيه وجود الرب القدير الكامل الذي يملأ فراغ نفسه الطُّلَعة، والذي يفسّر وجودُه، ما

فى هذا الكون العجيب من آيات بينات ..

ولقد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام، كما جاءت من قبله مواكب الأنبياء والمرسلين .. وقامت الأديان والشرائع، وسار على الأرض آلاف من القديسين والحُنَفَاء، فما زادوا فى الجوهر شيئاً عن رؤية إبراهيم .

هذه الرؤية التى زاملت الإنسان من فجر تاريخه شعوراً مُلِحًّا، وهُتافاً دائباً يُدوِّى فى أعماقه والتى أجاد إبراهيم إدراكها والتعبير عنها .

* * *

وكما أحسَّ الانسان حاجاته الروحية والتمسها فى الدين أحسَّ كذلك حاجته إلى التركيز على وجوده .

لقد ولد الانسان فى مهد وجوديته ..وحين بدأ يعى نفسه كان يحقق وجوده المحض بطريقة تلقائية فطرية .

لم يكن ثمة أوامر، ولا نواه ، ولا قيود ..

لم يكن يمثل حياته بل كان يعيشها كاملة غير منقوصه .

وكان قدره الشخصى صاحب الكلمة الأولى، والعليا فى توجيه حياته. فليس هناك حكومة تخضعه، ولا مجتمع يصهره.

ولقد مكث طويلا، يدور فى فلك وجوده المحض..وحتى

بعد أن خشى العزلة على نفسه وعلى كيانه، ونادته ضروريات بقائه ليندمج ويتفاعل، ظلت فرديته أمينة على حقوق ذاته ساهرة على دعم وجوده .

كذلكم أحسَّ الإنسان فى طفولته المبكرة حاجته إلى تنظيم إنتاجه..وأحسَّ ـ ولا أقول وعى ـ أهمية علاقات الإنتاج بالنسبة لمصيره . وإن الطريقة التى كان يفرق بها الإنسان الأول بين المِلكية العامة لتكاد تبهر الألباب بما تكشف من إحساس ذكى بأهمية علاقات الإنتاج .

فالإنسان فى ذلك الدهر الأوَّل كان يقدس المِلكية الخاصة ولا يسمح قط بالافتيات عليها..وبلغ من ارتباطه بها أن كان يأخذها معه إلى قبره بعد موته، حتى الزوجة باعتبارها ملكًا له. كانت تفقد حياتها حين يموت زوجها وتأخذ مكانها إلى جواره فى القبر بين ممتلكاته الخاصة .. !!

هذا الولاء الضارى للامتلاك لا نجد له أثراً حين نغادر الأشياء الخاصة إلى المنافع العامة كالأرض مثلاً ..

فالأرض عند ذلك الإنسان كانت كالماء والهواء لا تُباع ولا تُملك،وهى مِلك لكل الذين يعيشون عليها ويعملون فيها.

وليست الأرض وحدها ، بل والقُوت الذى يخرج منها .

وكم يأخذنا العجب ، حين نعلم أن الإنسان الأول وضع لنفسه ولجماعته تقليداً : ألاَّ يقرب طعامه إلا بعد أن يقف خارج كهفه، ويصرخ مدويا بطريقة خاصة يدرك كل من يسمعها أنها دعوة إلى طعام .

واعتز الإنسان البدائى بهذه المشاركة فى الأرض التى كانت الوسيلة الوحيدة لإنتاجه عندما وجد أنها تتيح لأفراد الجماعة علاقات ودودة لا أنانية فيها ولا نزاع .

ومن البقايا المتخلفة عن ذلك الإنسان القديم ، التقى "الفردرسل ولاس"بعض منها فى أمريكا الجنوبية فقال: [١]

" لم أجد بينهم قانوناً،ولا محاكم سوى الرأى العام الذى"

"يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً .."

"فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً ."

"والاعتداء على هذه الحقوق يندر وقوعه أو يستحيل"

"إن الناس جميعًا فى مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً .

كذلك التقى"هرمان ملفيل"بقوم آخرين فى جزيرة "ماركساس" فقال عنهم :

"أثناء وجودى بين قَبيلة التايبى لم يُقدم أحد قطّ"

---

[١] كتاب "قصة الحضارة" تأليف ديورانت

"للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس، وسار"
"كل شئ فى الوادى سيراً هادئاً متسقاً على صورة "
"لاتجدلها مثيلاًفى الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها"
"خيرها ، وأصفاها ، وأتقاها "
"وإن فى هذا القول منى لجرأة أستبيحها، لأنه قول"
"صدق "

* * *

كذلك أحسَّ الإنسان قديماً جداً ، قيمة العلم ومارسه قبل أن يعرف اسمه.. نعم مارس الإنسان العلم التجريبى على النطاق الميسور ..

لم يكن يملك المعامل ، ولا الأجهزة ، ولا المختبرات ، بل ولا الوعى الذى يلاحظ به الظواهر ، ويستنبط به القوانين، ومع هذا أحس حاجته للمحاولة العلمية، وعبر عنها فى حدود طاقته، ومضى يكتشف ويستخدم، فاكتشف النار، واستخدم الحديد، وما وقفت به القناعة عند شئ واحد، بل كان دائماً يجاوز الأشياء إلى خير منها فهو - مثلاً - بدأ يولد النار من الشرر المتقاذف حين يطرق حجرًا بحجر وكان من الممكن أن يكتفى بهذه الوسيلة مادامت تُظفره بحاجته من اللَّهب غير أن

هذه الوقفة ضد طبيعته، وما دام قادرا على تصوُّر وسيلة أفضل فلن تهدأ نفسه حتى يبلغها ويخرجها إلى الوجود وهكذا يترك الحجر إلى أدوات تقدح لها النار ، مضى يشكلها ، ويطوِّرُها فى دأب يشير إلى إصراره الفطرى على اكتشاف الأشياء والسيطرة عليها.. واليوم، نبصر لكل مظاهر التقدم العلمى جذوراً فى المحاولة التى بدأها الإنسان القديم بقذف الحجر، والرمى بالمقلاع ..

وأحدث وسائل إطفاء الحريق اليوم، امتداد لمحاولته الأولى، إطفاء النار بالطين ..

ووراء كل ظاهرة حضارية،وكشف علمى، ملايين المحاولات،والحلقات التى يُعتبر كل منها أثرًا لما قبلها، وسببًا لما بعدها .

وإذا كان الإنسان الأوَّل لم يدرك المفهوم الذى يدركه أسلافه اليوم لكل من العلم والحضارة ؛ فإنه قد أحسَّ فى عمقٍ حاجته إليهما، ومارس كلا منهما ممارسة فطرية .

مارس العلم؛كشئ يسيطر به على الطبيعة،ومارس الحضارة كمجموعة من الاستجابات تُطوِّر حاله إلى أرق وإلى أفضل .

* * *

إن الإنسان يحقق ذاته ويجاوزها دائما..والمستويات التى عبَّر فيها عن استشرافاته الدينية، والعلمية، والفلسفية تختلف وتتفاوت لهذا السبب ـ أعنى بمجاوزة ذاته .

ولكن القاعدة التى لا تكاد تتخلف، والتى ينبغى أن نكون على وعى بها، هى أنه يسير عَبْر نفسه .

إنه يتلقى احتياجاته ويستجيب لها..ويكتشف قُدْراته ويعبر عنها .

ونفسه هى كل هذا العالم الممتلئ المفعم بالأسرار..عالَمه النفسى، والعقلى..عالَم شعوره، وفكره ، وإرادته .

لهذا يكون ظلما أكيدًا له، وجهلاً واضحًا به، أن نسجنه فى زاوية من زوايا وجوده الفسيح المتراحب ونحصر كل استشرافاته ونشاطه فى انعكسات هذه الزاوية وحدها .

ذلك أن جوهر العمل الإنسانى، هو تحقيق الكيان الإنسانى، ودَعْمُ انتشاره المستمر، ونموه اللانهائى، حتى يتمكن الإنسان دائمًا من عملية التخطِّى والتجاوز التى يتم بها معراجه.

والكيان الإنسانى متعدد الاحتياجات كما أسلفنا، ومن ثم فلابد أن تَحظى بالتقدير والاحترام كافة استشرافاته الدينية،

والعلمية، والفلسفية، مادامت وثيقة الصلة بنقائها الفطرى. ومادامت بمنأى عن الإضافات الكاذبة المفتعلة التى تطفلت عليها عَبْر الزمن .

وهكذا نتلقى بالحفاوة سعى الساعين لتحرير وجودنا، والساعين لإعلاء كلمة الله فى أفئدتنا، والساعين لربطنا بحركة التاريخ ربطًا يجعلنا سادة الإنتاج لاعبيده.، والساعين لإرباء مكانة العلم.، والداعين للاعتماد عليه فى كل شئوننا .

ونحن نبارك الحوار والجدل، بل والنزاع الفكرى بين هؤلاء جميعًا بعضهم لبعض إذا كان تركيز كل فريق منهم على اتجاهه يعنى إبراز المزايا النهائية ، أو الممكنة لهذا الاتجاه..أما حين يعنى هذا التركيز التفرد والسيطرة، بمعنى أنه وحده الحق، وما سواه باطل وغرور... فآنئذ يحق لنا أن نشك كثيراً فى قيمة هذا الادعاء .

لسنا نحاول بهذا عقد صلح بين الفلسفات ووجهات النظر الكبرى إنما نريد أن نزكى فكرة تبلغ من اهتمامنا أقصاه.، هى أن الإنسان ـ كما أسلَفْنا ـ يسير عَبْر نفسه..نفسُه عالم مملوء بالاحتياجات. وطبيعته النهائية لم تُعرف لنا بعد حتى نتصيد مزاجها الأوحد .

ولذا، يتحتم جعله المعيار لكل عمليات تطـوره وحياتـه.. ويتحتم احترام احتياجاته النابعة من أعماقه .

ولقد حَـذِق الإنسـان الـدرس مـن أقـدم عصـوره. فـواءم مُواءمة فطريـة ذكيـة بـين كـل احتياجاتـه دون أن ينقسـم مـن أجلها على ذاته .

كان يرسل الطرْف فـى خشـوع نحومعبـوده. وفـى نفـس الوقت يتابع محاولاتـه المتواضعـة للكشـف والاسـتخدام اللذيـن يسيطر بهما على عالَمـه، وكـان يكتشـف علاقاتـه وينظمهـا. ويَدْعم وُجوده ـ فى ذات الوقت الذى يبنى فيه مجتمعه ..

صحيـح أن بعـض مراحـل تقدمـه، تفسـح الطريـق دومـاً لمراحل أخرى جاء دورها .. لكن ذلك لايعنى تهـدم بنيانـه .. بل يعنى تكامل البناء .

بعبارة أخرى نقـول : إن الإنسـان خـلال تقدمـه لايفقـد السيطرة على نفسه، وإنما يُعَزِّزها ويظفـر بالكثير مـن وجـوده إدراكهـا..وهـو بهـذا لا يتخلى إلا عـن تلـك الاحتياجـات العارضة التى كان لها دور موقوت.بينما يظل متشبثًا بـالأخرى التى لها بجوهره وشائج وأسباب .

والإنسان لا يعرف أنصاف الحلول، ولا يَقْفِلُ راجعاً عنـد

منتصف الطريق . وإنما يذهب بغرائزه وبأشيائه إلى نهاياتها..
ثم يجاوزهاإلى سلوك يتضمن أسباب كفايته فى مستوى أعلى.

وكما أنه قادر على تحويل غرائزه الحيوانية إلى حاجات إنسانية .. فسيكون قادراً على تركيز هذه الحاجات فى النمط أو الأنماط الملائمة وعلينا ـ إلى أن يفعل هذا ـ أن نحترم احتياجاته القائمة ..

إن الذين يحاولون وضع الإنسان داخل إطار فلسفى معين يشبهون الذى يحاول تركيز أخبار الهرم الأكبر فى هذه العبارة "مجموعة من الحجارة المرصوصة فى ارتفاع طوله...وقاعدة عرضها..." ..!!

فالهرم الأكبر فعلاً مجموعة من الأحجار، ولكنه ليس ذلك وحسب..بل هو أسرار وتاريخ، وحضارة، هو عالَم حافل بمعجزات العلم، ومتطلبات الروح، وعمل السواعد الشِّداد..!!

كذلكم الإنسان لا يستطيع أحد أن يدَّعيه لنفسه، لارجل الدين، ولارجل العلم، ولارجل الفلسفة ..

ومصايره ليست بيد مُعْتَقَده وحده، ولا بيد الفلسفة وحدها ولابيد العلم وحده ..

إنما هى بيده .. يد الإنسان العائش وسط احتياجاته ،

المدرك تبعات حياته .

وكما تألّق هذا الإنسان فى قلب محمد والمسيح، وموسى وإبراهيم، تألّق أيضًا فى قلب بوذا.. وتألق كذلك فى قلب الفارابى، وابن رشد، وابن سينا، وأرسطو ، وهيجل، وماركس ... وتألق أيضاً فى قلب كوبرنيكس، وابن يونس، وجاليليو ، ونيوتن ، وأينشتاين، ودارون، وجابر بن حيان ، وابن مسكويه وتألق فى قلب أبى بكر الرازى ، وباستير .. وفى قلب المعرّى وشكسبير .

وهو فى كل هذه التألقات التى تفاوتت منازلها ومصادرها لم يكن يتنزه أو يزجى فراغاً .. وإنما كان يَعْبُر نفسه ، ويعُبّر عنها .

كان يكشف عن حاجة فى صميم كيانه ورسالته ، تدعوه للتحليق فى كل هذه الآفاق جميعاً .. آفاق الغيب وآفاق الشهادة ... آفاق الدين، وآفاق العلم، وآفاق الفلسفة .

الإنسان مادة حضارته

كان "فولتير" يقول :"أريد أن أعرف الخطوات التي سارها الإنسان من الهمجية إلى المدينة" و ـ فولتير ـ بعبارته هذه يصور حاجةً من أذكى حاجاتِ وعينا الإنساني .

فمعرفتنا كيف سار الإنسان ذلك الشوط المديد المُنْهِك ، وكيف غادر الغابة إلى المدينة ، والوحشية إلى الحضارة ، وفي أية قافلة مقتحِمة مُكابدة اجتاز الصعاب ، وتخطَّى الأهوال ، واقتحم المخاطر ..

معرفتنا هذه ، وحسن إدراكنا لها ذو بال وخطر ، في تقييم الإنسان واكتشاف دوره .

وإذا لم يكن هذا الكتاب مجالاً لتفاصيل هذه المعرفة ، وتتبع خطوات الطريق جميعه ، فأنه ـ وحسبه هذا ـ سيكتفي منها بالسِّمات التاريخية التي تنبئ في صدق ، كيف كان الإنسان ، ولا يزال ، مادة حضارته.

لقد أَلِفْنا أن نربط بين المظاهر الحضارية، وبين الطبيعة .. أوبينها ، وبين ظروف أخرى موضوعية .

فمثلا، الحضارات التي قامت على شاطئ البحر الأبيض، وعلى شطآن أنهار النيل، والفرات ودجلة، والكنج، والدانوب والسين والتايمز ..كثيراًما نجعل هذه الشطآن مادة تلك

الحضارات .

ونحن ندرك بداهة أن هذه الحضارات لم تكن شيئاً ثاوياً داخل أصداف البحر ، وقِيعان الأنهار .

ولطالما لبثت المحيطات والبحار ساجية أو هادرة ، تَصْطفِق أمواجها آلاف القرون في خَواء مُوحِش حتى أتاها الإنسان .. وعندئذ طوَّعها لأغراض وجوده ، وغَرَس على ضفافها الهاجعة مباهج فنه وروائع حضارته .

وكذلك نصِفُ عصرنا هذا بعصر الآلة .. وننطق كلمة "الآلة" في فُتون ، وهُيام ، وتبتُّل .. وكأنما نريد أن ننسى في ضجيجها الحافل شأن خالِقِها العظيم .. الإنسان .. !!

الحق أنني بهذه السطور أقرر بديهة معروفة .. وليس أسوأ ما في الأمر حاجتنا إلى تذكرها وتدبرها .. بل حاجتنا إلى التوسل بها للدفاع عن الذكاء الإنساني الذي هو في عصرنا هذا موضع التندر والاتهام .. !

أجل ، إن الذكاء الإنساني الجدير بكل ثقة وكل حفاوة وكل احترام يُتَّهم اليوم ، كما اُتُّهِم في عصور سالفة بجريمة القتل ، والقضاء على الجنس البشري كله ..

لقد كان هذا شأن الناس معه في عصور خلت ..بيد أنه

فى عصرنا هذا يأخذ أوْفَى حظوظه من هذا الاتهام .. !!

كلما اخترَعَ سلاحاً جديداً .. كلما اكتشف من قارّات المعرفة والعلم جديداً .. طار صواب الناس ، وقالوا : وداعاً للحياة .. شهيدة ذكاء الإنسان وغروره .

والناس فى هذه التطَيُّر معذورون، وملومون..

معزورون.. لأن الذكاء الإنسانى فى انطلاقه الجسور يخطف أبصارهم ، ويَفْجأهم بالمعجزات التى ما كانت تخطر لهم ببال ، فيتركهم سُكارى ، وما هم بسُكارى ..!

وملومون .. لأنهم لايبسطون عقولهم بعض البسط فتعود إليهم بكل أسباب الثقة بذكاء الإنسان .

إنهم يركّزون أبصارهم على الأفراد ، والجماعات ، والحكومات ، والمخترعات ، والأحداث ... وطبيعى أنه من الميسور لهذه القوى إذا احتدم التناقض بينها واضطربت موازينه أن تنتهى إلى كارثة الختام ..

بيد أنهم ينسون الحقيقة الناصعة الفاعلة والسائرة وسط هذا الشّتات .

أجل ، ينسون الإنسان .. !

وسيبدو لكثيرين أن يتساءلوا: وما الإنسان ؟ أليس هو

هذه الأشياء التى سلَفت: الأفراد، والجماعات، والأحداث..؟؟

هل هو الفرد ..؟أم هو الجماعة ..أم هو التاريخ والحركة الإنسانية الداهمة ..؟؟

أم هو شيء خارج عن هذه جميعاً ..؟؟

الحق أنه لابد من تتبع التفكير الإنسانى فى هذه المسألة قبل أن نظفر بجواب ؛ فقد اختلفت أحكامه ، وتعددت افتراضاته فى سبيل الوصول لمن صاحب الدور الفعال فى بناء حضارتنا .

* * *

يخرج من بين الجماهير الطامية ، والجموع الغفيرة أفراد يرتفعون فى الأفق كالشموس .. هذا رسول ، وهذا عالم ، وهذا فيلسوف .. ولا يكادون يطلون على الناس برسالاتهم حتى يلقفوهم ويقودوهم إلى الطريق الذى يختارون . ونبصر أثرهم فى توجيه الحوادث واضحاً، فننعتهم بأنهم المُغَيِّرون وجه التاريخ. ونرى الخلود الذى يظفرون به عَبْر الأجيال ويتفوقون به على الزمن فلا يداخلنا ريب فى قيمتهم كأفراد أفذاذ ..

- مثلاً نسمع اسم سقراط ، فنتساءل من فورنا أين أُمة سقراط.؟ أين أثينا التى ظهر فيها وخفق فى سمائها ..؟

لقد فنيت أُمته ، وفنيت مدينته ، وبقي ـ الفرد ـ سقراط يتنقل فى وعى الأجيال .. بل لقد تحول إلى شمس بشرية ، دارت فى فلكها كواكب من البشر ونجوم ..

ـ ونسمع اسم نابليون ... رجل كتب فى طفولته وهو تلميذ صغير لافتة وضعها فوق مكتبه"يجب أن أكون جنرالا".!

ومع مطلع الصباح كل يوم، كان كما يقال ـ يستقبلها فى مَرح صبيانى ، وأيضا فى جِدٍّ طفولى .. ويؤدى لها تحية عسكرية ، ويصرخ"يجب أن أكون جنرالا" وأيّا مّا يكون شأن هذه القصة ، فقد كان جنرالاً.، وامبراطوراً ؛ وغازيًا ؛ فاتحاً .

ولقد ذهب يقود بفرديته جيشاً لايتعب، ولا يسأم، ولا ينهزم حتى التَقَى أخيراً بالجنرال يناير ـ على حد تعبيره ـ فجمدته ثلوجه . وبدده صقيعُه .. وحين كفَّ الفرد نابليون عن العمل وتخلف عنه حظه رجع التاريخ عن الطريق التى كان سائراً فيها معه . وعاد يلتمس طريقاً أخرى هكذا تصورنا دور الفرد فى مغامرة نابليون ..

ـ وفى مستوى أعلى يتبدى لنا دور الفرد فى رجل مثل "ماركس" رجل حادّ الذكاء ، إعصارى الإرادة، كتب "رأس المال"فحرَّك به المعرفة الإنسانية وغير اتجاهها ، وأثار فى أعماق

المحيط البشرى مدًّا ثورياً عالمياً .

ومن المسلّم به أن هذا الفرد بذكائه النفاذ ، بدأ يدفع التاريخ منذ أرسل نذيره ، وهو بهذا يشير إلى دور الفرد فى صنع التاريخ ، وبالتالى فى إنشاء الحضارة ..

ـ وفى مجال السياسة يشرئب أمامنا رجل ملأ الدنيا وشغل الناس ، هو "بسمارك" ..

هذا الألمانى الداهية ، ماذا كان مصير ألمانيا ، والاتحاد الألمانى ، بل والتاريخ الألمانى كله لو لم يظهر هذا الفرد المفعم ذكاء وحيلة .. والذى يحمل إرادة لاتعرف التهيب ، ولا التردد ، ولا العجز .."

* * *

هذا منطقنا حين يبهرنا دور الفرد، ويجذبنا بَريقُ بطولته..

لكننا نعود فننبهر بضياء آخر، وننشئ منطقاً آخر ـ حين تنادينا "الجماعة" كاشفة عن كفايتها وسلطانها .. عندئذ نتجه صوبها ونكاد ننزع الراية من يد الفرد، ونسلمها إياها ..

فكل فرد مهما عظم دوره، واتسعت كفايته، ليس فى التحليل النهائى سوى ثمرة بيئته ومجتمعه

ـ فسقراط ـ مثلاً ـ نشأ فى مجتمع يتمتع بحرية سابغة فى

الفكر والقول والعمل. مجتمع يمارس الفلسفة على نطاق واسع، ومع هذا فَثَمّةَ فراغ كبير بين تفكيره ووجدانه. فهو ـ أعنى المجتمع ـ يتحدث فى كل شئ ، ويلسف كل شئ ، ويتعقب بالفحص والتفسير كثيراً من ظواهر الكون والحياة . بيد أن وجُدانه يتخشع للأساطير وينحت من الحجارة آلهة معبودة .

إنه يحلس ببديهة سامقة، أن الأرض كرة ، وأن الذرَّة تنطوى على طاقة هائلة ..

ثم ينتقل من هذا الحدس الذكى إلى الخشوع الضّارع أمام آلهة الأُولمب الذين يُتداول عنهم من أنباء النزاع والصراع والتنافس ما يضحك ويثير .. ! والمجتمع يحسُّ هذا التناقص ، ويتطلب من يحل عقدته . أجل يتطلب رجلاً ذكياً يملأ الفراغ بين عقل الجماعة ووجدانها .. أو بتعبير آخر ، يزحف بعقل الجماعة نحو غريزة القطيع فيها، وينتزع من الخرافة الأرض التى تقف عليها ؛ ويضع أمام كل أسطورة علامة استفهام ضخمة.

وهكذا ظهر الناس على هذا العمل ، وكان سقراط..

ـ ونابليون .. ماذا كان نابليون .. ؟؟

إنه ثمرة حكومة الإدارة فى باريس من جانب .، والطبقة الوسطى"البرجوازية "من جانب آخر .. لقد انتدبته حكومة

الإدارة ،كقائد عادى لحملة عادية .. فلما كشف عن كفاية عسكرية تلائم أطماع هذه الطبقة و تستطيع أن تخدم أهواءها، تلقفته البرجوازية الفرنسية، وسلطت عليه الأضواء، وتولته بكل وسائل الدعاية، وصنعت له الأمجاد التى جعلته بطلا أىَّ بطل.. ومن ثمَّ ركب نابليون ثَبَجَ الشهرة وسُخِّرت له كل قُوى دولته فضرب بها ذات اليمن وذات الشمال .

- وماركس

لقد التقى بشبابه فى مجتمع ثائر متطلع .. فمقاطعة "رينانْيا" التى نشأ بها ، كانت قد رحّبت بجيوش فرنسا التى ستنقذ أهلها من الإقطاع وتُجهز على السلطان المطلق الذى يعيث به فى الأرض فسادًا، الأمراء الإقطاعيون. ولكنها بعد عشرين عاما قاست خلالها قسوة الفرنسيين سيما فى نهب الضرائب من أهلها ، عادوا يممون وجوههم شطر "بُروسيا". ثم يعاودهم الحنين مرة أخرى إلى فرنسا بعد أن أذلهم من جديد الحكم البيروقراطى الاضطهادى فى بروسيا .

وكانت الأفكار الاشتراكية تزحف.. بل كان شبح الشيوعية ـ كما يقول "لوفافر"ـ يهدد أوروبا ويهيم فى آفاقها.. كل هذا قبل أن يخط "ماركس" سطراً واحداً فى

الماركسية.

ولقد بدأ شاعراً، يهوى الشعر ويعد نفسه ليكون أديباً ، وكان عضواً فى نادى الشعراء .. ولكن روح الجماعة التى يعيش بينهاوانطلاقها الثورى آنئذ ، والأزمات الاقتصادية الماحقة ، والاضطهاد الوعر الذى سلكه غليوم الرابع ، كل هذا لَوَى زمام"ماركس" إلى الفلسفة ثم إلى الماركسية نفسها.

* * *

هكذا نرفع لواء الجماعة، ونجد من المنطق الذى يُؤَلِّق دورها، مثلما وجدنا من قبل، المنطق الذى يُجَلِّى دور الفرد .

بيْدَ أن وعينا لايلبث أن يتجه نحو مسار آخر ، إذ يبصر التسلسل الواضح ، والوعى المستمرّ فى حوادث التاريخ وفى حركته ، فينادى بأن صاحب الدور الحقيقى فى تطور الناس وحضارتهم إنما هو التاريخ .

- ففردية سقراط، ومجتمعه، كانا عاجزين عن إنجابه وإبداع عبقريته لولا حركة التاريخ التى كانت قد بلغت بأثينا، وبالفلسفة فى أثينا مُستوىً عالياً يتيح ظهور مثل هذه الموهبة الشامخة .

وآية هذا ، أن "سقراط" لم يكن يمثل مجتمعه ..بل كان

أكثر من ذلك ، يمثل الاستعداد التاريخى لهذا المجتمع .

أو بتعبير آخر.. كان يمثل الدور الحقيقى الذى يستطيع مجتمعه أن يقوم به، وإن لم يقم به فعلا لسبب أو لآخر .

ولكى نوضح هذا نضرب مثلا بجزيرة العرب فى جاهليتها.

إن الشكل الخارجى لتلك الجماعة، كان يبعث على الظن بأنها لاتصلح لغير رَعْى الإبل، وقرض الشعر، وعبادة الأصنام، ومعاناة الرياح العاوية عَبر الصحراء .

ومع هذا ، فقد كان استعدادها التاريخى الذى لم يكن منظوراً ولا محسوساً ، ويؤهلها لأعمال باهرة سامقة .. ولم يكد الرسول عليه السلام يلمسها لمسات هادية حتى انطلقت أسرع من الضوء فى تحقيق المعجزات .!!

كذلكم كانت أثينا ..كان استعدادها التاريخى مختلفاً عن شكلها الخارجى ولقد أدرك هذا سقراط الذى وعى حركة التاريخى واستجاب لها .

صحيح أن مجتمعه هذا ، هو الذى أكرهه على نحوٍ ما أن ينسحب من الحياة بجرعة من السم .. بيد أن هذا الحكم نتاج الهوى الاجتماعى فى أمة سقراط، وليس نتاج الرشد التاريخى الذى ظهر فيما بعد، وبعد أن أيقظه بموته أكثر مما كان يوقظه

في حياته .

ـ ونابليون كذلك ، ليس ثمرة شخصه، ولا ثمـرة مجتمعـه، بل هو الابن الشرعي للتاريخ .

قد يكون ابناً عاقـاً ، فالتـاريخ ينجـب البررة والشـريرين ولكنه على حال، ابنه ، وثمرته .

والمنطق في توكيد هذا، يسير هكذا .

لقد سجل نابليون انتصارات هائلة عُرِف بها وعُرفت به. وكان ناس زمانه وبعد لا يرون فوق خشبة المسرح سواه .

ولكن هل كان نابليون قادراً على براعته تلك لو لم تكـن حركة التاريخ معه .. ؟؟ كلا .

لقد كان التاريخ هناك ينتظر نابليون ـ أى نـابليون ـ أى أن حوادث الماضي كـانت قـد انتهـت فـي مسـارها إلى نقطـة تسمح بل تستحث قيام مغـامر مـن نـوع نـابليون .. والتـاريخ كما ينبغي أن نعلم ، كالعِلم .

لا يعرف الخير والشر، ولا يقول هذا طيب وهذا خبيث. وإنما يعرف فقط، هذا لازم لعمليات التطور ، أم غير لازم .

ولقد كان رُوح العصر يهتف بواحد من طراز "بونابرت" ويُفتن به فُتوناً شديداً .

كان التـاريخ بحاجـة إلى رجـل يمـلأ أوربـا ذعـراً وقلقـاً ، ويعبث بعروشها وامبراطورياتها الباذخة ، ويعمـم بأيـة وسـيلة مفاهيم الثـورة الفرنسـية ، ويوقـظ فـى الجماهير روح التمـرد والرغبة فى التغيير .

ولهذا رأينا بعض البلاد التى وطئها غازياً تستقبله استقبال الفاتحين، عن إخلاص وحب، لا عن خـوف ومُسـايرة . لأنهـا كانت ترى فيه منقذاً كبيراً ..

تُرى هل يقدر "نابليون" أن يعود إلى عصرنا هذا .. ؟؟

أعنى ، هل يستطيع أحد مهما تكن مواهبه وقدرتـه علـى المغامرة وولعه بها أن يمثل دور نابليون اليوم ، يمشى فى الأرض غازياً .. يفطر بدولة ، ويتعشى بأخرى .. ؟!

كلا..ولقد حاول هتلر أن يكونه،فانتهى كزوبعة ضالّة .!

لماذا .. ؟

لأن روح العصر مختلف .. وحركة التاريخ تتطلـب نوعـاً آخر من الرجال ، ومن الأحداث .. وهى ـ مثلا ـ تؤثـر اليـوم "غاندى" واحد على مائة ألف هتلر مجتمعين .. !

ـ وماركس:

ماكان نبوغه الشخصى، وما كان مجتمعـه بقـادرين علـى

منحه هذا الدور الهائل الذى قام به لولا الحدث التاريخى ..

ذلك أن التمزق الذى كانت تعانيه الرأسمالية ، كان لابد أن يجد من يكشف عن أسبابه الدفينة ، ويتنبأ له بمصيره .

والمخاض الثورى ـ آنئذ ـ الذى كان يُرسل نُذُره ، وإرهاصاته، كان لابد أن يجد من يُبَشِّر به ويرسم له طريق العمل الذكى الواعى، المثابر لهذا لم يكن ماركس"عَلاَمة اجتماعية"تحمل سمات مجتمعها وبيئتها وحسب.. بل كان "عَلاَمة تاريخية" تشير إلى مقادير للتاريخ جديدة توشك أن تأخذ دورها .

ـ وبسمارك :

ماذا كان نبوغه، ومجتمعه سيعطيانه، لو لم تكن الظروف التاريخية قد حددت ساعة الصفر للاتحاد الألمانى .. وأسرَّت إلى "بسمارك" بميعاده .. ؟!

ولقد اعترف هو بهذا اعترافاً واضحاً فى خطبة ألقاها فى الريخستاغ الألمانى ، قال :

"ليس بوسعنا أن نتجاهل الماضى ، ولا أن نصنع "المستقبل "

"وإن الناس ليبالغون فى تأثيرى على الحوادث التى"

"عرفت ـ فقط ـ كيف أستغلها .. "

"ولكن لايخطر ببال أحد أن باستطاعتى صوغ التاريخ"

"فما أنا بقادر على ذلك حتى بالاشتراك معكم"

"صحيح أننا معاًنستطيع مقاومة العالم بَيْدَ أننا لانستطيع"

"أن نصوغ التاريخ وعلينا أن ننتظر حتى تتمّ حوادثه"

* * *

هكذا نضرب الأمثال لوعينا الإنسانى حين يشغَفُه دور الفرد فيؤمن به . ثم حين يشغفه دور الجماعة فيؤمن بها . ثم حين يشغفه دور التاريخ فيؤمن به ، ومع إدراكنا الحق لدور الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ، وأيضاً مع احترامنا للوقفات التى وقفها التفكير الإنسانى عند كل منها الفرد، والجماعة، والتاريخ فإننا نريد أن نتخطاها جميعا، ونُجاوزها.. معلنين أن صاحب الدور الحقيقى فى كل تقدمنا وارتقائنا، إنما هو الإنسان ..

أجل .. ليس هو الفرد .. ولا الجماعة .. ولا التاريخ .. ولكنه الإنسان .

وهنا يعود إلينا السؤال : وما الإنسان .. ؟؟

ولعل من الخير أن أعترف بالصعوبة التى أُحِسُّها وأنا

أصور مفهوم هذا الإنسان الذى أعنيه .. ذلك أنني أُحِسُّه أكثر مما أعرفه.. وأستشرفه برؤيـا الحدْس، أكثر مما أُبصره برؤية العقل ولكن هذا لن يمنعنا عن السير معاً صوْب اكتشافه .

وأود أن أذكر أولا، أن خلافنا الفكرى حول دَوْر كل من الفرد، والجماعة، والتاريخ، وإنما يتضمن الرغبة فى محاورة هذه كلها إلى شئ أقرب إلى الحقيقة إن لم يكن الحقيقة ذاتها.. وذلكم الشئ هو الإنسان ..

فالحافز الحقيقى للذين يؤمنون بقيمة الفرد، وينيطون به البطولة، إنما هو فى الواقع، تكريم الإرادة الإنسانية ..

والحافز الحقيقى للذين يؤمنون بالجماعة، وينيطون بها البطولة، إنما هو تكريم التضامن الإنسانى ..

كما أن الحافز الحقيقى للذين يؤمنون بالتاريخ،ويضعون الزمام فى يده، هو تكريم التراث الإنسانى، والحركة الإنسانية.

فالإنسان هو الرؤية الحقة لنا فى عالمنا الإنسانى هذا ..

ونحن لانصاب بالقنوط من أمره ، واليأس من مستقبله إلا حين تغيب عنا حقيقته .

وكَأَىٍّ من فيلسوف وعبقرى تَغشَّاه اليأس لهذا السبب .

فالأغريق حين رأوا التاريخ حلقة مفرعة ..

والرواقيون حين صاحوا فى الناس:"لاتتوقعوا من المستقبل شيئاً"..إنما ذهبوا هذا المذهب لأنهم لم يكتشفوا الإنسان ..

والفيلسوف الشاعر"جوته"حين يتنبأ بمستقبل لايبدى الله فيه اهتماماً بالجنس البشرى،ويرى من الخير أن يعيد الخلق من جديد،إنما يغلبه اليأس على هذا النمط،لأنه لم يكتشف الإنسان.

وأرسطو نفسه ،حين قال:"ياأحبابى..ليس فى الدنيا أحباب"..؟؟ إنما قالها فى ساعات غُمَّ عليه فيها حقيقة الإنسان.

وكل الذين يعزلون الإنسان ، وينْسَوْن مكانه بين صفوفنا وعالمنا . كثيراً ما يفترسهم التشاؤم والقُنوط .

ومن عَجب أن الذين واجهوا الحياة بأوفى حظوظ التفاؤل والثقة والاقتدار من الأنبياء، والرواد، وقادة الحق والخير .. كانوا على وجدان ذكى بحقيقة الإنسان .

هذا الإنسان كيف نتعرف إليه .. ؟؟هل هو نحن ..؟ أم هو شئ سوانا ..؟؟ أهو خارج عنا .. أم كامن فينا ..؟؟

الحق أنى لاأريد أن أعطيه معنى تجريدياً ، يفقده وجوده المادى العظيم ولكنى كذلك، لا أريد أن أحصره فى تلك المعادلة الرياضية التى تجعله حاصلا لمجموعة من الكربون، والنتروجين، والاكسجين والهيدروجين والكبريت والملح ،

والحديد..؟

وإنى لأبدأ تعرفى إليه بملاحظة تطورنا البشرى الهائل .

* * *

إنه - أعنى التطور - يمضى داخل سلوك ملئ بالمتناقضات والعوائق . مع هذا تجئ نتائجه دائما ، كما لو كانت مقدماتها على حظ عظيم من الدقة والتناسق ، وكما لو كان طريقها ممهدًا مُتلاحباً مُتْرَعاً بالحوافز .

ونضرب لهذا مثلا نعيشه الآن كما عاشه أسلافنا جميعاً فمجتمعنا الإنسانى، يعانى من الأنانية فى كل مكان ..

الأفراد يُفْتن كل فرد بنفسه،ويضع قائمة مطالبه من الحياة كما لو لم يكن هناك آخرون ينبغى أن يكون لهم منها نصيب.

كل فرد، لايكفيه أن ينال حقه، بل يريد ما ليس له بحق، بل وحقوق الآخرين جميعا .

والجماعات كذلك، كل أمة وكل دولة، مهما زعمت لنفسها من مُثُل عالية تتجه بطريقة تلقائية صَوْب نفسها ، وشعار كل جماعة ـ أىّ جماعة ـ هو "أنا أولاً:وأنا ثانيًا، والآخرون أخيرًا"

وطبيعى أن ما تفضى إليه هذه الأنانية من أَثَرَة ونزاع،

وحروب، يخرب الجهود الانسانية، ويصيبها بشرّ مايمزقها .

ومع هذا، فالحاصل النهائى لكل تلك العمليات الرديئة التعسة، هو التقدم نحو الخير، ونحو الحق، ونحو المحبة، والغيريَّة والسلام ..

أجل، إن الطريقة التى يتحول بها الشر إلى خير لتبهرنى، وأستشرف من خلالها الإنسان .

حين صاح "البابا إربان" عام ١٠٩٥ فى مسيحي أوربا "إن الله يريد منكم أن تقاتلوا عن دينه" وقرع بصيحته هذه أجراس الحروب الصليبية .

كانت صيحته، وكانت تلك الحروب بكل أهوالها، جسراً عبرت عليه حضارة العرب والإسلام، وحضارة اليونان التى كانت مع المسلمين إلى أوربا..وتحولت رزايا الحرب إلى مكاسب تفوق كل حسبان وتقدير ..!!

كما كانت سبباً حاسماً ومباشراً فى الإجهاز على الإقطاع هناك .

وحين اكتسح أوربا عام ١٣٤٨ وباء الموت الأسود ازدرد الآلاف والملايين فى شراهة ماحقة..ولكنه سرعان ما تكَشَّف عن خير مذهل..فقد خلق الأحداث التى كانت سببا

مباشراً فى إنهاء عهد الرقيق .

ويدفع كهنة أورشليم بالمسيح إلى صليب كبير فيكون هذا إيذانًا ببدء مجده وخلود كلماته .

ويأتمر الأشراف فى قريش بمحمد ليقتلوه .. ويضطرونه للرحيل عن بلده وداره..فتتحول هذه المحاولة الظالمة القاسية إلى تاريخ يتسع لحضارة تملأ ما بين الشرق والغرب، وتُدوِّى فى جنباتها دعوة القرآن ..

هنا، ألمح وجود الإنسان، وأتصوره مضموناً حياً لكل إمكانياتنا الخيِّرة، ولكل أغراض وجودنا ـ يقودُ خطانا، ويصطنعُ من آفاتنا مَزِية ومِعراجاً .

* * *

ـ وأبدأ تعرُّفى إليه كذلك بملاحظة خيالنا ..

كل خيالاتنا المضحكة عَبْر الأجيال، تحولت إلى واقع رشيد أكيد .

تخيلنا يوماً، أن نطير..واصطنع بعضنا فى سذاجة أجنحة، وحلق بها بضع ثوان ثم هوى .

وضحكنا يومها، وسخرنا وتندرنا.. وإذا الخيال الساذج يتحول إلى واقع ويالَهُ من واقع ..!!

وتخيلنا أن نركب البحر، ونتخذ طريقنا فيه سَرَبا، فألقى بعضنا فى مجْرَى ماء بجذع شجرة واحتضنه، وإذا بجذع الشجرة يصير سُفُناً كالجبال، ويُسخرُّ البحر لنا، كأنّه يابسة ذَلُول !!

وتَخيلْنا "المدن الفاضلة" فإذا هى تأخذ طريقها إلى الواقع على أتم نَسَق، وفى أحسن تقويم ..

وفى كل شئ كان خيالاً بعيد المنال .. ثم صار حقيقة، أسأل نفسى كيف حدث هذا ، وما معناه .. ؟؟

ومن الذى كان يتخيلً.. نحن أم الإنسان .. ؟؟

وأتصور الإنسان كما لو كان "المضمون الحىّ لكل تجاربنا وتصوراتنا " .

أجل . أتصوره قد جاء مُزوَّداً بكل تصوراته .

وأَحْسَب الأمر سار على هذا النمط..فحين ودَّع حيوانيته، وبدأ عصر إنسانيته، كان يحمل معه حصيلة كبرى من التجارب والمشاهد والعمليات الهائلة المعقدة التى شهد تركيبها جزء فجزءاً..والتى التقطها جميعاً"لاَشُعُورُه".واحتفظ بها فى قراره المَكين ..

وإن أقصى نقط انحطاطه فى الماضى.، لتُشير إلى أقصى

نقط كماله فى المستقبل..وإنه ليدفع كل القوى التى ملء يديه لتحقيق نهج يكاد يكون كاملاً ومفصلاً فى فطرته لاَوَعْيه، وإن كان عقله الواعى يكتشفه شيئاً، فشيئاً لقد عاصر الإنسان قبل أن يعى نفسه. كلَّ أشياء الطبيعة حواليه، رآها، وهى تكون، وهى تنحل وهى تتركب وبَصُرَ بخصائصها، واستقر كل هذا فى باطنه .. فلما بزغ فيه العقل تحركت فطرته لتعبر عن نفسها.. بل لعل العقل ذاته كان الأداة التى فجرتّها طبيعته المزدوجة الملأى لتعبر به عن نفسها، ولينتقل إلى العالم الخارجى أسرارها ومضمونها.

فإذا بسطنا أيدينا اليوم إلى عُشب وقلنا: إنه شفاء للكبد، فليس هذا إلا لأن الإنسان الكامن فينا قد زامل هذا العُشب من عهد قديم .

وإذا أشرنا إلى شلاَّل يتحدر ماؤه الهادر الصخَّاب، وقلنا: سنُوَلِّد من هذا التدفُق كهرباء..فأيضاً لأن الإنسان العائش فينا أبصر هذا المشهد على الطبيعة ذات يوم وأبصر البرق والضياء يندفعان من الأمواج المتقاذفة فى عُرام وجبروت ..

وإذا استغنينا غداً عن الطائرات، وحلقنا فى جو السماء بأجنحة ،أو بوسائل تناهت فى البساطة، فسيكون وراء هذا.

الإنسان الذى شاهد عَبْر تطوره السحيق زواحف تزحف على الأرض إلى جواره، وفجأة، وبعد محاولات - فى عقله الباطن كل أسرارها - رآها تبسط جناحين، وتذهب صاعدة فى السماء.؟

أى أن ذاكرته تسترد اليوم على نحوٍ ما . بلايين المشاهد والتجارب التى عاصرها وعاشها مع الطبيعة خلال تطوره المديد الممعن فى الطول والبعد.. ويتولى عقله الواعى بطريقةٍ ما، فضّ الإبهام والغموض عن تلك التجارب الراسية الراسخة...

وقبل أن ننصرف عن هذه الكلمات كما لو كانت وهمًا طريفًا علينا أن نتذكر حقيقة مماثلة تتكرر كل يوم، ويراها العلم بعينه ويلمسها بيده ..

تلك هى الطريقة التى تتطور بها الأجنة فى الأرحام .. فوقائع التطور البيولوجى للإنسان، والتى استغرقت بلايين السنين منذ كانت الحياة خلية.. حتى صارت إنساناً.. هذه الوقائع يركزها الإنسان، ويستعيدها ويكررها مع كل جنين .

فالجنين - كما يقول علماء البيولوجيا - يبدأ خلية، ثم يأخذ شكل الحلقة.، ثم هيئة السمكة حيث يتنفس بخياشيمه، لابرئتيه.. لابرئتيه .. ثم يصير حيواناً ذا أربع، له ذنب صغير ، ويغطى جسمه الشعر .. ثم يصير إنساناً ..!!

نفس المراحل التى تَقلَّبَ الإنسان خلالها فى بلايين، يستعيدها فى ستة أشهر لاغير،وبإصرار عجيب لايفلت منه جنين ..

وهنا ألمح الانسان الموجود فى"لاوعيه"يفضى إلى الانسان الموجود فى"وعيه" ليُنْجبا معاً، الانسان المتفوّق على وعيه..!

نحن نقول:إن العلم يغير وجه الأرض،ويعيدكشف الحياة. وهذاحق..بيد أن العلم نفسه لايوجدإلا بمقدار ما يريد الإنسان..ولا تسرى الحركة فى آلة إلا بمقدار ما يصنع الإنسان فيها من حركة ..

ـ وأبدأ تعرفى إلى الإنسان كذلك، بملاحظة العبقرية الإنسانية التى لاأجد لها سبباً أى سبب، لافى حركة التاريخ، ولافى تيار الجماعة، ولا فى إمكانية الفرد ـ

انظروا ...

"بتهوفن" الأصم، ينشئ وهو فاقد لأهم أدوات الفنان، ألحانًا، تتخطى كل مناسيب العبقرية والخلود .!

و"غاندى"..ذلك النحيل الضامر، العادى فى ثقافته ومظهره، يتحوّل بعُرْيه ومغزله إلى قوة لاتغلب ..!

و"الحلاّج"يحتضن عقيدة،يُصلب من أجلها وتقطع أوصاله

على خشبة الصلب، وتبتر أعضاؤه عضواً عضواً..ثم لا يتخلى عن عقيدته فحسب بل يبارك قاتليه ويقول عبارته المأثورة:"اللهم اغفر لهم فإنهم مافعلوا بى هذا إلاغيرة على دينك" .!

و"هنرى توماس باكل"الذى قضى عمره كله عليلاً مُوثقاً يتعلم سبع عشرة لغة ، ويفكر بها جميعا ولا يستطيع ـ كما وصفه هكسلى ـ أن يرفع رأسه من كثرة ما كانت تحمله..!

و"جماعة بدائية من العرب"تقطن صحراء قاحلة تحتضن دِيناً رَشَدًا، وتنشئ به حضارة عجَبًا ..!

و"شعب"مقرور ذليل فى أصقاع روسيا القيصرية .. يتحول بصورة أذهلت"لينين"نفسه مهندس الثورة ومنظمها،إلى طوفان بشرى داهم يشبه الأساطير .

هذه العبقرية التى هكذا تظهر مكتملة فى الأفراد وفى الجماعات.. مَن وراءَها.. ؟ إنه الإنسان ..

سنجد وراء الانطلاقات الكبيرة للجماعة أسباباً تاريخية قطعاً.. ولكن عبقرية الانطلاق المتمثلة فى امتلاكها لكل عوامل الفوز،شئ لايمكن أن يجئ إلا من إرادة الإنسان ..

عندما قيل لـ "لينين" إن ثورة عاتية، ملأت أرجاء روسيا،

لم يصدق، وظن فى الأمر خدعة..ذلك أن التاريخ يُزجى أسباب الثورة، أو الحركة الاجتماعية الكبيرة. أما العبقرية التى يُتِمُّ بها العملُ التاريخى نفسَه ! فمأتاها الإنسان ..

والظروف الخارجية لاتضع كل شئ ..

والعبقرية الإنسانية التى أقول إننى أتعرف بها على الإنسان، تدعم هذا فالنُّقَل الحاسمة فى تاريخنا تتمثل فى بضع قوانين هامة اكتشفناها :

- كروية الأرض وحركتها ..
- قانون الجاذبية ...
- نظرية النسبية ...
- نظرية أصل الأنواع ...

هذه الكشوف غيرت معالم تفكيرنا، وحددت طريق حضارتنا،وأسهمت فى كل ماجاء بعدها من إبداع واختراع..

فهل نبحث عن سرها فى الظروف الخارجية أيًا مَا كانت هذه الظروف...؟ حاولوا إن شئتم...أما أنا،فلا أجد سًرها فى شئ سوى الإنسان وبعد هذه الأمثلة والتهويمات، أستطيع أن أصوغ الكلمات التى تُعرِّف هذا الإنسان وتصور مفهومه .

أستطيع أن أقول :

إنه شئ يشبه"المُطْلَق" فى عالمه، وأرضه ..

إنه "الوعى الكامن" فى نوعه كله ..

أنه شئ يشبه عالم "المثل" عند أفلاطون ..

فالإنسان فى هذه الأرض: هو المثال،. الأفراد، والجماعات، والتاريخ..كل هذه، هى الصور والانعكاسات..

وهو بداية التطور الحى كله ، وقمته ..

بدايته، لأن"الأميبا"التى فيها الحياة لأول مرة على ظهر الأرض، كانت ـ على نحوما ـ تتضمن الإنسان ..

وقمته.، لأن الإنسان عندما نَحَّى جانباً كل الكائنات الحية التى كانت تعايشه وتسابقه،وتفرد بالسيادة، تمثلت فيه قمة التطور الحى فى كوكبنا هذا..بيدأنه"قمة"نامية.لأنها حية. وإنه لذاهب إلى أعلى دوماًحتى يحقق تبعات الأمانة التى حملها

لقد بدأ قانون الجاذبية مع بدء السموات والأرض والكواكب ..ولم نكتشفه نحن إلا منذ أقل من ثلاثة قرون.. ولم يكن جهلنا به يعنى انعدام وجوده، كما أن جهلنا به لم يعطل عمله ..

والانسان هو (القانون) الذى يحكمنا نحن البشر، وينظم حياتنا الإنسانية، ويرتب مقدماتها ونتائجها ..

ولقد قلنا إن الطبيعة الإنسانية لم يُكتشف منها إلا القليل.. ولسوف نكتشف الانسان فينا شيئاً فشيئا حتى يتجلى ذات يوم كماله هذا هو الإنسان، بالنسبة لعالمه، وأرضه ..

أما عن صلته ببارئه وخالقه، فعلينا أن نتقبل فى حُبور كلمة الدين فيه .

إنه ابن الله ، فيما عبَّر المسيح ..

وخليفة الله ، فيما قال محمد ..

وإن الإيمان بهذا،لاينقص من قدر الإنسان بل يرفعه عاليا.. عاليا .

فالمُواطن فى دولة عظيمة ، يزهو بأنه من رعاياها ومواطنيها ، ويستمد من عظمتها ثقة واقتدار .

والإنسان، ليس"مُواطنا" فى عالم الله وحسب.بل هو خليفته العظيم .

* * *

وهذا الإنسان، هذا "القانون العميم" هو أصل القوانين الموضعية فى دنياه، ومن ثَمَّ فهو فوقها جميعا، ولا يتحكم فيه منها شئ ..

وحسبنا أن نسأل أنفسنا :

لو لم يوجد الإنسان على الأرض، أكانت القوانين الاجتماعية ستوجد .. ؟؟

بالبداهة ، لا ..

كانت القوانين الطبيعية ستمضى فى طريقها، والعمليات البيولوجية ستستأنف سيرها..أما القوانين الاجتماعية، فمن كان سيوجدها، لولا الإنسان . أو لولا بديله ..؟!

وهذا يعنى أن الإنسان سيد وجوده ؛ وسيد تاريخه ..

مامعنى أنه سيد وجوده .. ؟

ومامعنى أنه سيد تاريخه ..؟

لنبدأ بالأولى ..

قلنا: إن الإنسان يحمل طبيعة ملأى بالتصورات والأسرار..وأنه أخذ على كاهله، أن يُخرج خَبْءَ الطبيعة حوله.

وهو بهذا،لايعمل بقوى سِحرية.بل بقُوًى منظورة واعية.

وقلنا: إنه ليس معنى مجردًا . بل هو مضمون حىّ لكل إمكانياتنا وتسامينا .. وذات واعية حالّة فينا جميعًا أفراداً وجماعات .

وكل عمل من أجل تكريم الإنسان، وبَعْث فرص

اكتماله لن يكون له موضوع سوانا، نحن البشر .

وكل إساءة إلى فرد إنسانى واحد، تعنى الإساءة إلى الإنسان فى مَجْلى من مجالى ظهوره .

والإنسان المُيَمِّمُ وجهه شطر الكمال العظيم، لن يبلغ هذا إلا بقدر ما تبلغ الجموع البشرية من نبوغ عقلى وأخلاقى، واجتماعى، فكلما كثرت الجموع للممتازة المتفوقة المسيطرة على مصيرها، كثرت معها فرص الإنسان فى الظهور وقَرُب يوم اكتماله .

وسيادة الإنسان على وجوده، هى السبيل لتحقيق هذا النبوغ للجُموع .

والوجود الإنسانى مُحكم البناء بشكل فذ، وهو يرفض التصدع والانفصال ..

إنه ليس حلَقات منثورة، ولا ذرّات. بل وحدة هائلة مكتملة يتوسطها الإنسان .

فالفرد فى حقيقته ليس فردًا.. وإنما هو "تركيب اجتماعى" أو بتعبير أهدى سبيلاً، هو "تركيب إنسانى" .

ينقل لنا العلاّمة الأستاذ "أميل بريه" عن العالم النفسانى الكبير "بلدوين" هذه الفقرة مدللاً بها على أن الفرد لا

يعرف نفسه،ولا يشعر بها إلاّعن طريق شعوره بالمجتمع أولاً..

يقول[1] :

"لقد اكتشفنا أن الطفل لايشعر بوجوده الذاتى"

"إلا بعد معرفته بشعور الآخرين؛ فهؤلاء يبدون"

"فى نظره مركزاً لردود أفعال ترتبط بحاجاته الخاصة.."

"وهم النموذج الذى يتخذه أساساً لتصور شعوره "

"الخاص .. وبعد هذا بفترة طويلة ، يصل الطفل "

"إلى مرحلة يتخيل فيها شعور الآخرين طبقا لما يشعر"

"به فى ذات نفسه ... "

كذلك ينقل لنا عالم آخر هذه الفقرة :

"إن الامتزاج بين الشعور بالآخرين والشعور بالذات "

"فى نفس الفرد يستمر طوال الحياة .. وإننا نُعدِّل "

"أفعالنا بناء على تلك الفكرة التى نكونها لأنفسنا "

"عن آراء الآخرين فينا .. "

"فشعورنا الذاتى،يشبه مرآة تنعكس فيها صورالأخرين."

فإذا كانت صلة الفرد بالجماعة تأخذ هذا الترابط الوثيق

فإن صلة الجماعة بجماعة أخرى تقوم على نَسَق مُماثل .

---

[1] كتاب "اتجاهات الفلسفة المعاصرة "

أى أن المجتمع - أى مجتمع - ليس دائرة مغلقة، ولكنه موجة فى تيار..وكل جماعة من البشر فى زمانٍ ما، ومكانٍ ما. إنما يتلقون من التيار البشرى كله تأثيراً مماثلاً لهذا الذى يتلقاه الفرد من الجماعة .

من أجل هذا آثرنا ألا نقول مع علم الاجتماع إن لكل فرد "تركيباً اجتماعيًا" وقلنا : إن لكل فرد"تركيبًا إنسانيًا" ..

وحين أكون كفرد، مركبًا هذا التركيب الإنسانى، وأحمل ميراث الإنسان الذى هو حقيقتنا الكبرى فإن هذا يكشف عن الخيرية العظيمة التى أحملها بين جنبىّ..هذه الخيرية التى إليها الحديث النبوى القائل:"كل مولود يولد على الفطرة"..بيد أن فرديتى هذه لاتعنى الانعزال، ولا الوجود الشخصى،لأننى تركيب"لاعنصر"ونحن فى الحقيقة، نتسلم ذواتنا من النوع، فى ذات الوقت الذى نتسلمها فيه من آبائنا وأمهاتنا ...

أجل.. إن الآباء والأمهات، يمنحوننا خصائصنا الشخصية.. والنوع، يمنحنا خصائصنا النوعية أو البشرية ...

وفى تكوينك الذاتى، وأنت نطفة، أدلى النوع بدلوه، واقتحم نسيج البذرة الأولى فيها..فإذا ذهبت تعيش فى وجود

منفرد : ففى أى وُجُودَيْك ستعيش ..؟؟

وجودك الشخصى.، أم وجودك الكلى .. ؟؟

إنه قد يبدو لك أنك تحيا فى وجـود حقيقـى حـين تجنـح إلى فرديتك،وتخرج خبء ذاتك ،ذاتك الواحدة..بيد أنك آنئذ لم تـزد فـى الواقـع علـى أن أحدثـت انقسـامًا فـى ذاتـك، إذ حاولت أن تجعل مركز الثقل فى أحد شقيها .

أجل..إنك آنئذ تحاول أن تشق الشعرة نصفـين..!!وإذن، فمكان كل فرد من الوجود، هو الوجود الإنسانى، لا الوجـود الشخصى..لأن الأول فضلاً عن كونه يتضمـن الثـانى، فهـو ـ قبلا ـ مجالنا الحيوى الأوحد .

لابد أن نصل كل خطوطنا بالإنسان ، ونكون دومًا على استعداد لاستقبال مشيئته والسير معه .

فالخير الإنسانى ، كامن فى النوع الإنسانى، وكلما وثُـق الفرد به وشائجه،ازداد غرْفا منه، وانتفاعاً به ..

ليس معنى هذا أننا نقـول للفـرد.، لكـى تُكـوِّن نفسـك، امتنع عن أن تَكُون نفسك .

إنما نقول له: امتنع عن أن تَكُون بعض نفسك واحذر أن تنشق على ذاتك ..

إن فى تكوينك "خلايا" ورَّثتها لـك البشـرية كلهـا، وهـى تأخذبك دائماً إلى موكبها .

وتجربتك التى تبدو لك فردية..هى قبـل هـذا اجتماعيـة، لأن المجتمع أسهم فى صنع ظروفهـا..،وإنسـانية،لأن طبيعتـك التى مارستها تحمل أقباساً من التراث الإنسانى جميعه .

ولندرك جيداً، أنه فى الوقت الذى نحاول فيه المروق مـن المضمون الإنسانى العام، أملاً فـى العثور علـى أنفسـنا، نفقـد أنفسنا .

إن حياة الجنين وأطوارها فى الرحـم تؤكـد أن كـل فـرد يحمل الطابع الإنسانى كله مركزاً أروع تركيز .

فإذا كان الإنسانى يكرر تطوره البيولوجى فـى كـل فـرد على النحو الذى سبق ذكره، فإنه أيضاً يُحَمِّل كل فـرد تراثـه، ويفرغ فيه طبيعته، ويجذبه إليه بأوثق العرى حتى لايكون شـاة قاصية تتخطفهـا الذئـاب وحتـى لايدغدغـه القلـق الوجـودى، ولايرفع راية التسليم أمـام مشـكلة العـدم، وحتـى لايعجـز ولا يَغَثّى ...!!

الوجود الإنسانى إذن ،هو عالمنا الأمثل والحق. وبه يكون الإنسان سيد وجوده. وهذا الوجود لايخلق نفسه، بـل نخلقـه .

ولا يجرى رُخاء،بل نعانيه .بيد أنها معاناة البَنّاء الظافر الذى يرفع طبقاً فوق طبق.لا معاناة الكسير الذى تتهاوى أنقاض البِناء فوق رأسه .

وفى الوجود الإنسانى الذى يشمل الحقيقة الخارجة كلها لاتَجّبّهُنا خيبة الرجاء فى بحثنا عن الوجود لأن فرص تحقيقة وافرة وباهرة .

وأيضاً، لانخشى العدم، لأن القضية هنا ليست قضية فرد منفصل عن حقيقته.بل قضية الإنسان فى دوره العظيم الذى لامنتهى له .

إن الانكباب على الوجود الفردى، عزلٌ للجهد البشرى واحتباس له فى قوقعة معتمة.بينما الحياة داخل وجود إنسانى تزكوالفرد، وتملأ يدية بقدرة لاحدود لها. وبه وحده يكون الإنسان سيد وجوده .

* * *

والآن، ما معنى أن يكون سيد تاريخه ..؟

إن المفهوم التقليدى للتاريخ قد ولّى مدبراً..ولم يعد التاريخ مجرد سجل للأخبار، والبطولات،والجرائم..كما لم يعد ذلك المسرحَ القديم لمناورات السياسة وغزواتها :

إن التاريخ بمفهومه الصحيح، هو الحركة الإنسانية والنشاط الإنسانى قاطبة..هو الوعى الإنسانى فى حركته الدائبة.

وقوانين هذه الحركة تقع تحت سيطرة الإنسان وليس العكس ..

وكل مرحلة تاريخية تأخذ مكانها خلال العمل الإنسانى هى مخلوقة للإنسان ، وليست خالقة .

والحركة التاريخية، ليست أكثر من مظهر زمنى للحركة الإنسانية .

والحدث التاريخى،لا تُنجبه الضرورات التاريخية، بل الضرورات الإنسانية..لأن الإنسان هو القانون الثابت الذى يجعل التاريخ عملاً واعياً وهادفًا .

ومن ثَمَّ فالإنسان لايخضع لأية حتمية تاريخية إلا إذا اعتبرنا التاريخ قَدَراً إنسانياً، يصوغه الإنسان نفسه، ثم يرتبط به عن طريق قوانينه التى يلتزمها، ويحترمها..أما دون هذا، فالتاريخ كعمل إنسانى، هو الذى يخضع لحتميات إنسانية تقتضيها طبيعة الوجود الإنسانى، ووظيفته .

وإذن فالتاريخ عندنا ـ لايمثل التطور التدريجى لفكرة الحرية كما يرى "هيجل" ...

ولا يمثل التطور التدريجى لعلاقات الإنتاج.، كما يرى "ماركس" ..

وإنما يمثل التطور التدريجى لظهور الإنسان ..

فالإنسان يُخرجُ خبئه، ويحقق ذاته، ويسير عبْرَ الزمن بآماله وأعماله لينجز أغراض وجوده التى إِنْ كان لها منتهى فهو بعيد. جدٌّ بعيد .

وهذه الرحلة الكادحة الداهمة التى يقطعهاخطوة خطوة:

هذه الرحلة: بكل علاقاتها، وعللها، ونتائجها، وحركتها، وإصرارها، هى التاريخ ..

والتاريخ إذن، ليس قدَراً طارئاً ومفروضاً علىالإنسان.. وليس حتمية غيبية فيه بل هو وعيه المدروس، وعمله المحْكَم، وحركته المنظورة .

يقول ماركس وأنجلز فى مُؤَلَّفهما "الأسرة المقدسة".[1]

"يقول المثاليون صنَع التاريخ كذا..وسوف يحكم"

"التاريخ بأن..والتاريخ لايرضى بكذا .."

"علىحين أن التاريخ لايصنع شيئاً.،ولايريدشيئاً،"

"وهويرضىبكل شئ..وعلىحين أن الإنسان هو"

---

[1] كتاب "كارل ماركس" تأليف لوفافر .

"الذى يصنع، ويحيا ،ويريد ، ويناضل..."

"التاريخ لا يستخدم الناس لغاياته الخاصة..."

"والتاريخ لا يعدو أن يكون الإنسان الذى يتابع أهدافه وغايته ..."

هذه كلمات فاصلة فيما بسبيله، وكل شرح لها فضول وتكرار .

وإن تحرير الوعى الإنسانى من الحتمية التاريخية، وتحريره من الحتميات جميعاً، لَيُشكل ضرورة قصوى .

وكلما وضعنا فى اعتبارنا ، أن الإنسان وحده ـ فى أرضنا ـ هذه ـ هو القِيمَة ..وكل ماعداه مما نعتبره قِيَمًا، ليس أكثر من تعبيرات ملائمة تعكس حقيقة الإنسان، وجوهره .

أقول كلما وضعنا هذا فى الاعتبار،ربحنا الإنسان، وربحنا أنفسنا، وأفرغنا فى دوْرنا حظاً أكبر من الفهم ومن الذكاء ..

قد أبدوا مبالغاً فى تمجيد الإنسان..ولكنى لن أكون مبالغاً فى تصورى لحقوق سيادته..وهذه الحقوق التى كلما ازداد ممارسة لها،ازدادت سيطرته على بيئته، وفقدت الظروف الموضعية قدرتها على التحكم فيه، وفى تاريخه ..

وحقوق السيادة هذه، تقتضى أول ما تقتضى أن يتبوأ

الإنسان المكان الأول والأعلى بين شتى الظروف المشتبكة، والتناقضات المتداخلة.،وأن يكون زمام المبادأة فى يده دوما، وفى تحفظ أو شروط .

وهذا ليس أمراً نمنّه عليه،ولاتَبرُّعاً نُسقطه فى كفه.. بل هو حقه الطبيعى الصميمى،الذى لايشكل عرضاً من أعراضه.. بل جزاءاً من صميم جوهره ، وصميم ذاته ..

يجب أن يعلو دائما ويسود، ذلك المبدأ القائل"لقد خُلِق السبت من أجل الإنسان..ولم يخلق الإنسان من أجل السبت".

فكل أشياء حياتنا الإنسانية ..وكل القوانين الاجتماعية، والظروف التاريخية،كل هذه جُعلت للإنسان، ولم يُجعل الإنسان لها ..

وإذن، فلا ينبغى أن يُضَحِّى من حقوقه ولا من حريته، ولا من سيادته بشئ لها ..

* * *

هكذا نتصور سيادة الإنسان على وجوده، وسيادته على تاريخه .

ومن خلال سيادته هذه، نبصره وهو يشيد حضارته، ويؤسس عالمه .

فالإنسان كما قلنا، هو مادة حضارته ..

ليست الأفراد، وليست الجماعات إلا بمعنى أنهم مَجْلَى ظهور الانسان ومركز وجوده ..

لقد قامت حضارات كثيرة أسميناها بمناطق نشاطها

حضارة الاغريق، والرومان، وأشور، والفرس، والعرب، والفراعنة ...

ونقول اليوم: إنها بادت .. وإنها لكذلك فعلا، لو كانت من عمل طوائف وجماعات ..

أما الحقيقة، فهى أنها لم تَبِدْ ولم تَفْن.. ولكنها تحوّلت، ونمت، وتطورت ..

ذلك لأنها من عمل الإنسان.والإنسان صامد، ونام، ومتطور .

ومجالات تلك الحضارات جميعاً من عمران، وكشوف وصناعة وعلم، لم يدركها العدم وإنما تطورت وصعدت

فتحنيط الموتى وعلوم الفلك، وفن العمارة فى حضارة الفراعنة وكشوف الطب، والكمياء، والطبيعة فى حضارة العرب ..

والفلسفة، والديمقراطية، والفن، فى حضارة الاغريق

والقانون، والعمارة . والإدارة، فى حضارة الرومان.

ومثلها فى حضارة أشور، والفرس ..

والفلسفة، وصناعة الورق والبارود فى حضارة الصين ـ كل هذه لم تَمُت، وإنما تطورت.لأنها تسير عَبْر الإنسان، وتتطور خلال مصايره الصاعدة .

لقد أعطاه الله طبيعة مُطيعة، باحت له بأسرارها، ووضعت نفسها وقوانينها فى خدمته .

بل لقد سخر الله له الشمس والقمر والنجوم مُسَخرات لأمره ..

ولهذا، فهو ـ أى الإنسان ـ أحكم وأفطن من أن تضطرب الأمور فى يده..أو تتهاوى عمارته وحضارته .

إنه لايعمل بقوة ساعده. فلو كانت قوة العضلات هى الفيصل لسبقته الحيوانات المهولة التى هى أشد منه بأساً، وأوفى قوة .

ولا يعمل بكثرة أعداده..وإلا لسبقته أيضاً الحيوانات والحشرات ولكنَّ بطلَ الحياة هذا..الذى شق صفوف جميع الكائنات فى كوكبه.،وانطلق من بينهاصاعدًا..راشداً..ماجدًا..

إنما يعمل بأثمن ماوُهب، وأفضل ما أعطى..

أتعرفونه .. ؟؟؟

إنه عقله ، وفكره ..

ألا وإنه لحتم علينا أن نقف معه فى فكره،لننظر، ونفَقْهَ، ونعرف .

فلنفعل ذلك الآن ..

الإنسَان سيّد فكره

حبا الإنسان طويلاً على يدى بارئه..وتلقى النفخة الكبرى من روح ربه، وبزغ عقله ووعيه، فأعلن الله رُشده، إذ رآه يتقبل فى شجاعة وغبطة، الأمانة التى عُرضت من قبل على السموات والأرض فأَبَيْن أن يحملنها ، وأشفقن منها ..

ومن ذلك الحين صار الإنسان سيد كوكبه..وكتب على نفسه، أن يحوّل أحاسيسه الغامضة، ومبهماته الباطنة إلى وعى، وحركة، ومستقبل .

كتب على نفسه أن يحول غرائزه الحيوانية إلىحاجات إنسانية ..

كتب على نفسه أن يحول أسرار الطبيعة المضمرة إلى عالم يكتشفه ويشيده .

وامتلك ـ على حد تعبير هيجل ـ غريزة خلق ذاته ..ومنذ وَعَى نفسه، شغله أمران، كان لابد أن يشغلاه .

أولهما : معرفة حقيقة جوهره ومصيره .

وثانيهما :السيطرة على العالم الخارجى وتسخيره .

ولقد سبق أن قلنا: إنه عاصر الطبيعة، ولَقَفَ مشاهدها، بغريزته، واستودعها عقله الباطن..ولما بزغ وعيه، وانحلت عقدة لسانه بدأ يترجم دخيلته العميقة ، وينقلها ..

بعض تلك التجارب والمشاهد، استقرت فى أعماقه مُبَيَّنة مُيَسَّرة ..فلما أراد أن يستعيدها ظهرت الأداة المناسبة، وكانت العلم ..

وبعضها كان مبهمًا وغامضًا، يحتاج إلى بث الأسئلة الكثيرة،وتقليب وجوه الاحتمال والنظر..وظهرت الأداة الملائمة لهذا، وكانت ـ الفلسفة ..

وبعضها كان خارقاً ومعجزاً..وظهرت الأداة الملائمة له ـ وكانت ـ الدين .

وعن طريق اللغة، مضى الفكر الإنسانى يملأ كل هذه المجالات ويغذيها .

وبالدين والفلسفة،شرع يحاول معرفة جوهره ومصيره ..

وبالعلم، مضى يسيطر على العالم الخارجى كله .

بهذه القُوى إذن ـ الدين، والعلم، والفلسفة وما انبثق منها، كالفن، واللغة، والأدب ـ يعبِّر الفكر الإنسانى عن ذاته.. تماماً..مثل الطاقة فى الطبيعة تعبِّر عن نفسها بقوى كثيرة كالكهربية، والمغناطيسية، والكيماوية، والحرارة، والإشعاع .

وكما أن القوى جميعاً، ليست فى التحليل النهائى لها سوى الطاقة نفسها..فكذلك القُوى الفكرية ليست فى تحليلها

النهائى سوى الفكر ذاته .

ونحن نعنى بالفكر هنا ـ التجربة كلها التى عاشها الإنسان عَبْر تطوره الطويل، ولايزال يعيشها بكل ما فيها من لاشعور، وشعور، وإدراك ، وإلهام .

* * *

ولكن، مامعنى أن الإنسان اكتشف الدين .؟

معناه أنه اهتدى إليه،ذلك أن اكتشاف شئ ـ أولاً ـ يعنى سَبْق وجوده..فاكتشاف الجاذبية، وحركة الأرض يعنى أننا لم نخلقهما، وإنما اكتشفنا وجودهما ..

ومعنى اكتشاف الإنسان الدين، اكتشاف حاجات دينية عميقة فى نفسه، ورَّثتها وأنجبتها أحاسيسه العارمة المحتشدة خلال تطوره .

وحين نبصر جيداً، هذه الحاجات.نرى أن الذين يدعون الوجدان البشرى لنفض يده من الدين على خطأ كبير .

ذلك أن الدين،ليس هو تلك الطقوس، والمشاهد، والشعائر فحسب...إن هذه كلها هى الشكل الخارجى للدين.

أما لُباب الدين، وحقيقته، فهو التطلع إلى اللانهائى..أو على حد تعبير "روبرت سبنسر":

"الإيمان بقوة لايمكن تصور نهايتها الزمانيـة، ولاالمكانيـة، هو العنصر الرئيسى فى الدين" ..

والإيمان بهذه القوى..أو على الأقل، الرغبـة فـى التعـرف إليها، شئ لايتكلفـه الإنسـان، وإنمـا ينبعـث تلقائيـاً مـن تجربتـه ونفسه..والعلم فى كثير مـن انتصاراتـه لايزيـد هـذا الإيمـان، أو هذه الرغبة إلا تشبثاً .

فهو مثلا - أعنـى العلـم - يستطيع أن يجمـع المـواد التـى يتكون منها الكـائن الحـى،ويُؤَلِّفَ بينهـا..ولكنـه لايسـتطيع أن يبعث الحياة فى خلية واحـدة ..هكـذا يقـول علمـاء البيولوجيـا أنفسهم. !!

وهناك أعداد هائلة من الأسرار العريقـة التـى تختفـى وراء الحركة العارمة للطبيعة، وللكون ..

ولـذا..فـالدين الـذى هـو تطلـع دائـب إلى اللانهـائى.. والشعور الدينى الذى هو الإحسـاس بحاجتنـا إلى التعـرف بهـذا اللانهائى . سيظلان على رأس دوافعنا جميعاً ..

ووصْفُنا الدين بأنه قوة فكرية، لاينقص من دَوْره شيئًا..

وحتى إذا أخذناه حسب تعريف الفلاسفة الإسـلامين لـه بأنه"وضع إلهى يرشدنا إلى الحق فى الاعتقـادات.وإلى الخـير فـى

السلوك والمعاملات" ..

فليس ثمة بأس فى أن تكـون نقطـة انطـلاق هـذا الوضـع الدينى هو فكر الإنسان..وإلا فلماذا اختار الله رسله من النـاس أنفسهم.ولم يَختَرْهُم من عالم آخر .. ؟؟

ثم إن الإيمان بالله ـ وهـو لُبَابُ الديـن ـ يكـون أقـوم، وأهدى حين يكتشف الإنسان نفسه حاجته إليـه، لاحـين يُمْلَـى ويفرض عليه ..

ولهذا ـ كما أسلفنا فى الفصل الأول ـ يـترك الله إبراهيـم عليه السلام بَجِدُ فى البحث عن إيمانه ..

يبهره ضياء القمر ؛ فيقول : هذا ربى .

ثم يبهره نورالشمس؛ فيغادر القمر إليها ، وينادى : هذا ربى.. هذا أكبر ..

ثم ينتهى به تَطْوافِه إلى أن الله لابد أن يكون أعظـم مـن هذا كله..وحسْبه من علمه به،أنه الذى فطرالسموات والأرض.

وتَطَلّع إبراهيم هذا، يشبهه فى الزمن الأول، تَطَلُّع الرجل البدائى إلى اللانهائى..وإن كان تطلع إبراهيم عليـه السـلام يمثـل منسوباً من الوعى أسمى وأرشد ..

وهذا يُصَدِّق أن الدين تجربة الإنسـان..لايمعنى أنه اخـتراعه

ليزجى به فراغاً، أو يقضى به وَطَراً عارضاً..ولا بمعنى أنه اختراعُ أول محتال، التقى بأول مغفل، كما يقول فولتير فى سخرية عابثة ..

ولكنه تجربة الإنسان بمعنى أنه انعكاس إحساسه العميق بخالقه وبارئه، وحاجته الراسخة الأكيدة لربه العظيم، كما أنه مَجْلى نشاطه الروحى الزاخر.وهو لهذا سيظل جزءاً من صميمنا ما دام سرّ هذا الكون مجهولا..وهو لن يظل مجهولاً، ولا مغلقاً ..

سنواجهه فى يوم مقدور ، بَعُدَ ذلك اليوم أم قَرُب.

أجل - فى يوم لا ريب فيه، سنُلاقى الحقيقة ونعانقها.. سنرى الله جهاراً عَلَنًا..

سنقف وجهاً لوجه أمام القوة العليا المحركة لهذه الأكوان المذهلة .

والدين نفسه، يقول هذا، ويتنبأ بحدوثه..وهذا التنبؤ من أروع آياته..فهو يؤكد أن الإنسان لن يظلّ رهين الجهل والتّيه.. بل إنه سيصل..سيعرف كل شيء..سيرى الحق ويواجهه..وهكذا يفسح أمام الانسان آماد الأمل والعمل .

واليوم الذى سيتم فيه هذا، يسميه القرآن"يوم الفَصْل"..

حيث تَبدىً الحقيقة فى وضعها الفاصل ..

ويسميه"يوم الجَمْع"..حيث لاشتات ولا فرقة بل نحن والحق معاً..حيث يلتقى الإنسان بالحقيقة التى طال بحثه عنها .

ويسميه"يوم الدِّين"..حيث نؤدى للدِّين تحية الشكر إذْ كان الحافز الذى لايهدأ وراء تطلعنا إلى اللانهائى العظيم، وإذْ كان باعث أشواقنا العالية، ومَخاطرنا السامية فى شوطنا الطويل ..

الدين، العلم، والفلسفة إذن، قُوى اهتدى إليها الإنسان لينقل بها نفسه، ويبلغ بها غايته وهى مَجْلى فكره الثاقب النامى ..

وكلمة"فكر" تبدو، وفيها من السيادة ما يجعل وضع كلمة"حر" إلى جوارها فُضولاً ولغواً ..

فليس للفكر سوى حالة واحدة يتأكد فيها وجوده، تلك هى حالة التحرر المطلق من شتّى القيود .

أى أن ليس ثمة فكر حر، وفكر غير حر..

هناك فكر..أو ، لافكر على الإطلاق .

ولكن للفكر أيضاً تناقضاته التى يتخذ خلالها طريقه، ويمارس وظيفته..ولقد جهل الناس دور هذه التناقضات دهرًا

طويلاً فاشتجر بينهم الخلاف والنزاع. ولم يكن الذى حدث ولايزال يحدث من خصومة بين كل من الدين والعلم والفلسفة ـ أو بتعبير أصح، بين رجال الدين، ورجال العلم، ورجال الفلسفة ـ إلامظهراً للجهل بعمل تلك التناقضات وحكمتها، ومظهراً بنشوء هذا التنوع فى المعرفة البشرية..

لقد تعودنا أن ندرس الفكر الإنسانى فى "قطاعات رأسية" فنقول: الفلسفة، والعلم، والرياضة، والفن، والأدب؛ والاقتصاد، والاجتماع..الخ..ولكن، حين نأخذ هذه المعارف جميعا، ككل متمثل فى الفكر الإنسانى، كما هو واقع فعلاً، فان هذه النظرة كفيلةبحملنا على احترام كافة القوى الفكرية التى يعبر بها الفكر عن نفسه .

إن الدين، والعلم، والفلسفة، وما ينضوى تحتها جميعاً من علوم منبثقة منها ـــ كالأدب، والتصوف، والرياضة، وعلوم النفس، والكمياء والحياة،والاقتصاد،والاجتماع الخ..هذه كلها تملكة العقل الرشيدة،التىلاتعرف الضّغْن،ولاينبغى لهاأن تعرفه.

والدين، والعلم، والفلسفة، وهى مَجْلَى ظهور الفكر الإنسانى، ومجال حركته.ولقد بثّ نفسه فيها جميعاً ليُنمى عن طريقها تجربته،وليحقق عن طريقها ذاته..ففيم الخلاف إذن..؟

كثيراً ما نرى المؤمنين بالعلم، وبالفلسفة، يخافون على التقدم الإنسانى من الدين ..!!

ومأتى هذه المخاوف - فى رأينا - أنهم يجهلون مكان الدين من الفكر..ويظنونه"دولة داخل دولة" أو قوة غريبة مجهولة اقتحمت حياة الإنسان ..

بيد أن الفكر ثاوٍ فى قلب الدين، والتطور الهائل الملحوظ الذى يحدث للتفكير الدينى ويجدِّد مفاهيمه، دليل على وجود الفكر هناك ..

ومن هنا، لن يكون الدين أبدًا، خطرًا على التقدم لأن الذى يصوغ للتقدم منهجه، ويرسم له خطاه، هو نفسه، الذى يكيِّف الاتجاه الدينى، ويمسك بزمامه، ألا وهو الفكر ..

وأيضًا . كثيراً ما نرى المؤمنين بالدين يخافون العلم، والفلسفة على الدين ، ويخشون منهما على تقدمنا الروحى والأخلاقى ..

فلوعلموا هم الآخرون أن الفكر الإنسانى الصاعد، إنما يَتوسل بهما - العلم والفلسفة - لإزجاء تقدمنا كله ودَعْمِ مَسيره ..لكانوا أقرب رُحْماً إلى العلم، وإلى الفلسفة، بل وإلى الحقيقة كلها ..

إنه مادامت كل هذه القوى مظاهر خارجية للفكر الانسانى، فلابد من أن نتلقاها جميعًا بقدر مُساوٍ من الاحترام.

رجل العلم المؤمن بكشوفه وبقوانينه، لايليق به أن يتجهم للإيمان الخالص، ولا يتنكر للاستشراف الروحى، لأن العلم نفسه ينفر من الأحكام النهائية...وتتقلب المسلمات، والرياضيات التى بلغت الشأو فى دقتها، كل يوم بين يديه من حال إلى حال..وإذن، فهو لايستطيع أن يزعم لنفسه حق إصدار حكم نهائى ضد الايمان .

ورجل الفلسفة، لاتأمره الفلسفة بتحدى الايمان، وتجاهله. لأن الفلسفة كلها عبارة عن"كيف..ولماذا" ..

وإذا جاز للفيلسوف أن يتحرك من وراء هذين السؤالين أى أن يبحث بحثًا حرًا، غير مقيد بأحكام مسبقة حتى ولو كانت دينية فإن رجل الدين له نفس هذا الحق المشروع ..!

ورجل الدين كذلك. لايحق له أن يضيق صدراً بنشاط العلم، أو يضيق نفساً بحوار الفلسفة. ولا ينبغى له أن تذهب طُمأنينته حسرات من ذلك العدو الذى يخشاه دوما. وهو الإنكار أو الإلحاد .

فليس على ظهر الأرض من لايتمنى من كل نفسه أن

يكون هناك إله قادر، يلجأ إليه فى أزماته، ويطلب عونه،وينعم برعايته .

ليس على ظهر الأرض فرد واحد بينه وبين الله ثأر وعدواة .

كل ما فى الأمر. أن الذين لم يهتدوا للإيمان، وقعوا تحت تأثير الفكر الإنسانى فى نقطة بعيدة بعض الشئ عن الإيمان .

كما أن المتجهين اتجاهاً دينياً محضاً، ينأى بهم عن العلم، وعن الفلسفة. قد أصابهم نفس الأمر.، فوقعوا تحت تأثير الفكر فى نقطة أقرب إلى الدين،وأبعد عن العلم،وعن الفلسفة.

وأقرب الناس إلى الكمال والتفوق،هم أولئك الذين يكونون تحت تأثير متكافئ،ومتماثل من الفكرالإنسانىالعظيم.

والمفكرالرشيدحقاً ليس هوالذى يقول:"هذا،ولاشئ معه" بل من يقول:"هذا، إلى أن يظهر خير منه"

والحق أقول لكم:إننى لاأخاف من الإلحاد على قضية الإيمان أبداً . بل إنه لمن تمام النعمة على الإيمان، هذا الذى نسميه إلحاداً .ذلك أن الإيمان لو تُرِك للطمأنينة، لذوى ومات .

إن جَوَّ المعارك، كان ولا يزال المناخ الطبيعى لكل ضرورة ، وكل فضيلة ...

ثم إن الدين، كأى شئ آخر، قد اكتسى خلال تطوره ومساره بطبقات كثيفة من الخرافات الدخلية، والإضافات المتطفلة..ولم يكن ثمة ما يكشف هذا الدخيل سوى ناقد مثابر، وخَصم لَحُوح .

ألا وإن التخوم الفاصلة بين الدين، والعلم، والفلسفة، لتنماع رويداً رويداً..ويوم يسترد الفكر الإنسانى انبثاثه، سيختفى آخر مَعْلَم من معالم التفاوت بين هذه القُوى .

ونحن لانحاول بهذا أن نعقد صلحًا بين الدين والعلم والفلسفة.. ففى التحليل النهائى لحقيقة كل منهما، لاخلاف بينهما ولا نزاع ..

إنما الخلاف والنزاع بيننا نحن الناس..بين الصنوف المختلفة والمتباينة لإدراكنا..ولذا نسوق هذا الحديث لنعيد على ضوئه فهم وتحديد علاقاتنا بالدين وبالعلم وبالفلسفة أولاً.. ثم علاقاتنا ببعضنا ثانياً .

* * *

عند ما أذاع الفيلسوف الأثينى "انكساجوراس" أن الشمس كرة من النار، وليست إلهاً، نفاه أهل أثينا خوفاً من أن تَعُمَّهُم الشمس بعذاب .. !!

ومن بعد انكساجوراس مئات المشاهد وآلافها، شهدت أقواماً من أفذاذ البشر يتعرضون للهوان، وللعذاب من أجل الصدق .

وفى كثير من تلك الوقائع، كانت الجماهير هى الوقود الملتهب الذى يحرق العباقرة والأبرار .

أين كان الفكر يومئذ ليحمى رواده ..؟؟

كان غائباً ...

ذلك أن الفكر إنما يبسط نفوذه عن طريق الثقافة. وفى المجتمع المثقف يكون نفوذ الفكر سامقاً وعظيمًا، وبالتالى يرتفع شأن الحقيقة ويتأكد سلطانها، ويصبح "كبت الحقيقة" خطراً تقاومه الجماعة كلها .

إن أعظم ما يقدمه الفكر للناس هو أنه يُؤَمِّنهم من خوف..والإنسان لم يستطيع أن يسير عَبْر نفسه، ويصنع تاريخه إلا بقدر ما كان يقهر مخاوفه ويتحرر منها..وكان سبيله لهذا، القوة الفكرية الواعية الداهمة التى كان الفكر يصبها فى قلبه، وفى ساعده ..

أجل كان الخوف ألد أعدائنا ، ولا يزال ..

ولكن، ما شأن الفكر بالخوف ..؟

الصلة واضحة..فالسبب الحقيقى للخوف، هو الجهل..

ولقد خفنا الرعد، والبرق حين كنا نجهل كنههما ..

وخفنا الأرواح، فعبدناها ..

وخفنا القحط، وضعف المحاصيل، فذبحنا أفراداً منا وقدمناهم قرابين .

وخفنا ملوكنا، فعبدناهم، وإلى أيام قليلة، كان شعب كبير يعبد"الميكادو" ابن الشمس .!

كذلك خفنا، ولا نزالُ نخاف من الفكر كلَّ جديد..لأننا كنا نجهل طبيعتنا الصاعدة.ونجهل إرادة التاريخ المعبرة عن إرادة الإنسان فى التطور، والتغير،والارتقاء.ونجهل طبائع الأشياء حولنا .

ولكن الفكر الذى اقتحم جميع مناطق شعورنا، وتجربتنا، والطبيعة حولنا.،مضى يذيع نَعْىَ مخاوفنا أوَّلا، فأولا .

وهذا هو دوره الباسل العظيم..ومن أجل هذا، ينظر الفكر إلى كل قوة تحاول الضغط عليه، وتحديد إقامته، والتحكم فى اتجاهه. ينظر إليها كحليفة للخوف، وللجهل. تريد أن تستبقى فى وعينا قدراً من الخوف يمكن لها، ويعرقل مسعاه فى تحريرنا .

قلنا: إن الفكر يبسط نفوذه عن طريق الثقافة..فالثقافة، هى الانعكاس الشاسع العميم لحركة الفكر كله .

فما الثقافة هذه..؟وما دورها..؟وما واجبنا تجاهها..؟؟ إذا شبهنا الفكر بالقلب؛ فالثقافة هى الشرايين التى يؤدى القلب بها وظيفته .

وإذا شبهناه بالدماغ، فالثقافة هى الجهاز العصبى الذى يتلقى عن الدماغ ، ويعطيه ..

وكما أن كلاً منهما ـ القلب ـ والدماغ ـ يعمل طرداً وعكساً..فكذلك الفكر مع الثقافة يعمل طرداً وعكساً.. يعطيها ويأخذ منها. هكذا يستكمل تقدمه ونماءه ..

من أجل هذا، يصير كل إضرار بالثقافة إضراراً بالفكر نفسه. وكل إعنات معها، يصيب الفكر بالأذى الذى لن يكُفّه قطعاً عن أداء دوره..ولكنه يعرقله ويعتاقه .

والفكر غالب على أمره..وسرعان ما يكتسح كل عقبات طريقه. ويذهب صاعدًا..لكن الذين يحلُّ بهم السوء الطويل حقاً، هم الناس الذين يتخلفون عن الفكر بتحدّيهم له، ويقطعون ما يجب أن يبقى موصولا بينهم وبينه من وشائج وأسباب .

حيث تكون الثقافة، يكون الفكر ..

وحيث توجد الثقافة رفيعة شاملة، يوجد الفكر رفيعاً شاملاً.

والفكر الإنساني، لاينسى أبدا وظيفته الرئيسية..وهى تحويل الجهالة إلى معرفة..والمخاوف إلى جرأة، والعشوائية إلى منطق..والسذاجة إلى وعى مكتمل..وبعبارة واحدة . تحويل الدهماء إلى صفوة .

أجل..هذا هو الدور الحق للفكر وللثقافة..تحويل جميع غرائزنا، ومشاعرنا وطبيعتنا إلى طاقة مفكرة، ورفع الأعداد الهائلة من البشر إلى مستوى الصفوة ..

كان الفن للصفوة..وكان العلم للصفوة..كما كانت الحياة كلها بكافّة مناعمها ومباهجها للصفوة..ولكن الفكر فى رحلته كان ينادى الكافة، ويُعنى بمصيرها. وكثيراً ما كان يترك القصور الشاهقة الناعمة الباذخة، ويسرع خطاه نحو كهف أو كوخ متعب، تسكنه أسرة مُتعبة، فيُلْقى بكلمة السرّ إلى طفل شاحب جائع عريان..فيمضى على غير نهج أترابه، وبعد حين قريب يتكشف عن عبقرى عظيم ..

إن الفكر بهذا كَشَف عمّا فى صفوف الكافّة من استعداد، وأبطل حجة الصفوة فى استبقاء الفن والعلم والحياة

لها..وكشف كذلك عن غايات رسالته وعمله..وعلّم الثقافة دورها، وعلّمنا واجبنا تجاهها ..

* * *

وللثقافة نقطتا بدء،لكى تؤدى عملها كاملاً غير منقوص..

(١) الجماهير الإنسانية ..

(٢) الطبيعة الإنسانية ..

إن الجماهير الإنسانية ، هى المُجْلى الحقيقى لظهور الإنسان..الإنسان الذى يعمل داخلها، دافعاً نفسه ودافعاً إياها معه إلى الكمال الميسور .

ولقد ذهبت عصور الامتيازات، ولن تعود..ومن اليوم بل ومن الأمس شرعت الجماهير تمسك بأزمّة حياتها .

ونقل الثقافة للكافّة، على رأس واجبات عصرنا والتزاماته تجاه نفسه، وتجاه الأجيال .

أجل، وإن التربية لهى الطابع المميز للبشرية الجديدة التى طلع عصرها، وأهلّت أيامها..وهى ـ أعنى ـ التربية تتهيأ لتأخذ مكان أشياء كثيرة، طالما اعتُمد عليها فى تقديم الناس .

وخير طريق نسلكه لدفع التقدم الإنسانى، هو أن نضع

وصية سقراط موضع التنفيذ الناجز، تلك الوصية التى تدعونا بأن"نَعلم أكثر مما نُحرِّم" ..

لقد سار الإنسان طويلاً بقوة العقيدة، وسار طويلاً بقوة التقاليد والعادة ..وسيسير طويلاً بقوة الثقافة ..

ليس معنى هذا أنه سيتخلى عن العقيدة، وينبذ صالح العادات بل معناه أن الثقافة هى التى ستنسق، بل بدأت بالفعل تنسق مجموعة المعتقدات والعادات.وهذا يكشف عن ضرورة تعميم الثقافة ...

إنه ليس بوسع الناس أن يقفوا عند تقاليد انتهى دورها.. وإن الجهل ليُزَيِّن لهم الوقوف حتى تأتيهم قوة تنقلهم ..

وإذا كانت حركة التاريخ هى تلك القوة التى يصطنعها الإنسان لهذا، فإن خيرماتعتمد عليه حركة التاريخ هذه، هى الثقافة .

فى الأزمان القديمة، كانت الأسطورة تُكافَح بأسطورة مثلها.. ولكن الانسان اكتشف أن لهذه الطريقة آفاتها.. فالأسطورة الآفلة لم يكن التغيير يبلغ صميمها..كان الذى يتغير، هو شكلها لاطبيعتها..ومن ثمَّ أعطى الثقافة كل ثقة، وصار يعتمد عليها فى صوغ آرائه، وعاداته، ونُظمه .

وكما انتهت عصور المُسلّمات، والأحكام النهائية بالنسبة للعلم، فينبغى أن تنتهى أيضاً بالنسبة للناس، حتى لايضلُّوا فى الهوة الفاغرة بين مسلك العلم، ومسلكهم .

أعنى أن الجماهير نفسها. يجب أن تتوفر لها فرص التفكير بمنهاج علمى،وتشحذ ملكات البحث لديها، حتى لايعمل العلم بعيداً عنها.،وحتى لايتسع مَدَى هذا الانفصال الملوحظ بين العقل والخُلُق..بين العلم والسلوك..وهذا يقتضى أن يتوفر لها أكبر حظ من الثقافة .

سيقول ناس منا، ماللجماهير والثقافة..؟؟أولئك هم النازعون إلى الارستقراطية، والامتياز، والاستعلاء ..!

وأولئك هم الذين ينسون أن جُلَّ العباقرة بزغوا من الكهوف الخاوية . ومن صفوف الجماهير العريانة البائسة ..

وأولئك هم الذين لايستشرفون ـ أقل استشراف ـ مصير الإنسان ..

إن مصير الإنسان، هو مصير هذه الجموع..وإن الإنسان ماض إلى قممة السامقات..مافى ذلك ريب..وإذن فالجموع ماضية إلى نفس المصير العظيم. وسيأتى اليوم الذى تُعمَّم فيه العبقرية والمعجزة..وإنما نشيد بأهمية العمل من أجل تعجُّل

هذا اليوم،وذلك بالقيام بكل تبعاته..وأولها نقل الثقافة للكافّة..

سيقولون: أيَّانَ للجماهير أن تمتلك الثقافة، وهي التي تقودها غريزة القطيع..هي التي نرى أهواءها تتجه بها صَوْبَ كل تافه من الأمور وغَثّ ..؟؟

أجل إن غريزة القطيع تقود الجماعات..ولكن أليست غرائز الحيوان تعمل عملها في الفرد العبقري ذاته ..؟؟؟

إن مصير هذه الغرائز معروف في مستقبل الإنسان.إنها جميعاً ، في الفرد وفي الجماعة ، ستتحول إلى قوىً إنسانية محضة عالية .

أما اتجاه أهوائها إلى كل تافه وغث..فلأن فرص الثقافة بعيدة منها كل البعد .

إن الجماهير تُؤْثِر ـ حقاً ـ وسائل التسلية، والترفيه على معاناة المعرفة، ومُدارسة الثقافة..ولكن مسئوليتها عن هذا ليست إلا جزءاً من مائة جزء، من مسئولية قادتها وحكامها..

كما أنها أيضاً مسئولية الاستعمار الذي عاث في الأرض فسادًا، والذي يعتمد في دعم سلطانه على غفلة الجماهير ويُشجع دوما إقبالها على التسلية، وعلى اللهو واللعب والفراغ، ويخاف المعرفة..وهو لهذا يحشد أوقات الناس بما

يُنسيهم ما يُريد هو أن ينسوه، وبما يصرفهم عما يريد هو أن ينصرفوا عنه..

لكن ذلك لن يدوم..لأن الجماعة الإنسانية كما أسلفنا تسير فى طريق صاعد..وركُونها إلى المتعة الصارفة عن التفكير وعن المعرفة أمر مضاد لطبيعة تطورها..بل هو أمر كفيل بالقضاء على جُهودها فكأىٍّ من حضارة، ومن امبراطورية، قَضَى عليها إيثار المتعة على المعرفة ..

ولقد انتفع الإنسان بهذه التجربة، ولن يسمح بالانتكاس إليها . يقول جلبرت هايت :[1]

"عندما غزا اليابانيون الصين،عُنُوا بتجارة الأفيون"

"فأباحوها،وشجعوها فى جميع المناطق المحتلة.."

"واتخذ الألمان ــ الفودكا ــ وسيلة كهذه الوسيلة فى بولندة "

"أما ـ شادو ـ الحاكم بأمره فى كوبا فكان خلال"

"حكمه يعلن عن عرض أفلام خليعة فى مسارح هافانا"

"كلما توقعت شرطته السرية ثورة أو احتجاجا .."

"وهكذا تستطيع أن تفسد أكثرية شعب إذا وفرت"

---

[1] كتاب "جبروت العقل"

"لها توفيراً لا ينقطع من ملذات تُبَلد عقلها ... !!"

هذه الأمثلة تبين لنا بعض العوامل التى تحول بين الجماهير والثقافة.. والتى تعمل جاهدة لِتُبَلِّد عقلها، وتضلل تفكيرها. ليس من العدل إذن أن نحاسب الجموع عليها حساباً يُفْضى إلى حرمانها المطلق من أقدس حقوقها ..

إن الثقافة ليست امتياز..إنها حق الجميع. وليس من الخيال أن نطمع فى جماعة إنسانية تنظم ألفى مليون نفس أو يزيد، ثم تُحْرز كلها من الثقافة ومن النبوغ ما يحرزه الأفذاذ من بعض أفرادها ..

أجل ليس هذا من الخيال، بل هو من التبعة التى تشكل جزءاً هامًا وصادقًا من أمانة الحياة التى تقبلناها واثقين .

* * *

على أن هذا الارتياب فى الجماهير، يمثل بدوره سبباً من أهم أسباب الإذعان لحقها فى نقل الثقافة إليها .

ذلك أن هذا الشك ينعكس على القِيَم الكبيرة فيفسد علينا الادراك السديد لها .

ونضرب لهذا مثلاً ـ الديمقراطية ...

من كان يصدق أن فلاسفة الحرية فى العصور الخالية

يقولـون كلامـاً ينعـت الديمقراطيـة بأنهـا خُرافـة..لا لشـيء إلا لارتيابهم فى قدرة الجماهير على تطبيقها ..؟؟

لقد حدث هذا، والذيـن بشَّـروا بالديمقراطيـة عـادوا مـن أمرها يائسين .

فبعضهم يراها"أثراً من آثار الولاء القَبَلى للحرب"..

وبعضهم يصفها بأنها "حكومة الذين لايحكمون"..

بل رووا عن"روسُّو"معلـن حقـوق الإنسـان هـذه العبـارة المرجفة:"الديمقراطية الصحيحة، لم توجد قط.ولن تُوجد أبدًا"!

وحكَوْا عن كارليل قوله:"الديمقراطية بطبيعتها شئ يُلغـى نفسه بنفسه. ويؤدى فى نهاية الحسـاب إلى نتيجة هـى:صفـر صحيح "..!!

و"فولتير" - الذى لاتُذكر الحرية إلامقروناً بها اسمـه يقـول هو الآخر:"إننا فـى النظـام الملكى لانحتـاج إلاَّ أن نعلـم رجـلاً واحـد ..أمـا فـى الديمقراطيـة فينبغـى أن نعلم الملايين الذيـن يختطفهم الموت قبل أن نعلم عشرة فى المائة منهم"..!!

هل سأل أولئك الأفذاذ أنفسهم، لمـاذا أخفقـت، أو لمـاذا تخفق الجماهير فى استخدام الديمقراطية ..؟

إنها أخفقت لأنها لم يكن لها من الأمر شئ .

ولم يكن لها من الأمر شئ لأنها تخاف ..

وهى تخاف، لأنها تجهل..ومن ثَمَّ يسلس قيادها لكل مغامر .

وإن هذا المثل الذى ضربناه، لَيُرينا كيف ينعكس الشك في الجماعات على تفكيرنا، وعلى قِيمنا..ويُرينا بالتالى ضرورة تغيير نهجنا فى صياغة الأحكام التى نطلقها جُزافا على الجماهير والجُموع .

إن جماهير ـ أثينا ـ التى لقضاتها وهى تحكم بالموت على سقراط وجماهير ـ أورشليم ـ التى هلَّلت لمشهد المسيح وهو يقُاد إلى التعذيب وجماهير ـ فلورنسا ـ وهى ترجم بالحجارة منقذها الأمين سافونارولا ..

وجماهير ـ روما ـ التى غشيها الحبُور وهى تشهد حرق برونو..

والجماهير التى سارت وراء المغامرين إلى حتفها فى حروب تِلو حروب ..

كل هذه الجماهير، لم يكن ينقصها لكى تقف الموقف الراشد القويم سوى الثقافة والمعرفة..ولو أنها كانت تعرف، وتفكر، وتفطن،إذن لكان لها من أمرها يُسر، ولَبُلِّغت من

أمرها رُشدا ..

إن الجماهير البشرية، هى مَجْلَى الإنسان، ومستقر حركة وعيه ونشاطه..والإنسان فى كيانه الحق. فكر..والجماعة فى كيانها الحق ثقافة ومعرفة ..

وكل تطور لنا إلى أفضل، رهين بما يتوافر لنا من فرص الثقافة والعلم .

ليست مزية العلم أنه يسخر لنا الطبيعة وحسب..بل إنه والثقافة بصفة خاصة ينمِّيان علاقاتنا بأنفسنا، وبالطبيعة ، وبالحياة ، وبالكون كله .

فعشرات الملايين منا ـ نحن البشر ـ يستعملون"التليفون" ثم لايعرفون ما هو؟ ولا لماذا يتم الاتصال هكذا بين الأبعاد..

وعشرات الملايين يُصغون للراديو نهارهم ومَمْساهم، دون أن يعرفوا كُنْه المشيئة الحانية التى سخَّرت لنا هذا العمل العظيم ..

ليس معنى هذا أنه ينبغى للناس أن يتحولوا جميعا إلى فنيين فى صناعات التليفون، والراديو، والكهرباء..وإنما معناه أنه ينبغى لهم أن يدركوا جميعا مَأْتَى العلاقة الهائلة التى تربطنا بالكون، وبالأشياء كلها ..

فالعلم بكشوفه، يغمرنا بالصداقات النافعة، وفى كل اكتشاف جديد، يقدم لنا صداقة جديدة. مع الهواء..مع السماء..مع الكواكب..مع البحار..مع كل شئ فى كون الله الرحيب ..

وتعميم الإحساس بهذه الصداقات بين الجموع الإنسانية أمر ضرورى لكى تظفر بالمزيد من الطمأنينة، ومن الذكاء، ومن الأمل..ولاشئ يمنحها هذا الإحساس سوى الثقافة .

كان"جورج وشنطن كارفر" العالم الزنجى الأمريكى ينحنى فوق النبات فى الحقل، وفوق العشب فى الكَلأ، فوق نثارات الأشياء المهملة الملقاة على الأرض، ويحملق فيها بعينين ذكيتين، ويلثُمها بفم شكور، ويصغى إليها. فإذا سئل:

ـ ماذا تفعل يامستر كارفر .. ؟؟

يجيب : إنى أُنصت وأعى ..

وهل تُحدثك هذه الأشياء يامستر كارفر .. ؟؟

فيجيب :

أجل ـ إن الله يتحدَّث إلىَّ من خلالها ...!!

هذا هو الرجل الذى استنبط من الفول السودانى وحده قُرابة مائتى مُكتَشَف وصنف، ما بين طعام، ولباس، وشراب.

لأنه احترم علاقاته كإنسان بأشياء الطبيعة حتى مهملاتها التـى يدوسها الناس،وحاول صادقًا أن يكتشف دور هذه العلاقات.

إن تطور أفكارنا ونموها، رهينان إلى أبعد مـدى، بـأدراك مفاهيم العلم، ودَوْر العلاقات التى تتبـدَّى لنا خـلال كُشـوفه العظيمة، على أن يكون هذا الادراك من نصيب الكافَّة..وجميع الناس .

وإذا لم يكن يعنينا معرفة التفاصيل الفنية لكشفٍ ما..فإنـه يعنينا كثيراً وكثيراً، أن نعرف القوانين التى وراء هذا الكشف، ونعرف كل علاقاتنا به، ومصيرنا معه ..

إن هذا المعرفة ضرورية.. ولنضرب لهذا مثلاً .

لعله لم يحدث فى التاريخ الإنسـانى إجماع على مقاومـة الحرب مثلما يحدث اليوم..

فلماذا .. ؟؟

ربما لأن خسائر البشرية فـى الحربـين العـالميتين السـالفتين كانت نذيراً رهيباً ..

ولكن قبل هذا، وفوق هذا..اكتشاف الطاقة الذرية ..

واكتشـاف هـذه الطاقـة ليس هو الـذى ألهـم الجماهـير الإجماع ضد الحرب فأكثر مـن خمس وتسعين فـى المائـة مـن

سكان الأرض لايعرفون عن صناعة الذرة شيئا ـ أى شئ ـ إنما اكتشاف العلاقة بيننا نحن البشر، وبين هذا الطاقة الهائلة، هو الباعث والسبب ...

لقد أتيح للرأى العام العالمى أن يعرف حقيقة دور الطاقة الذرية فى الحرب ...

إنها الإبادة الشاملة، والدمار المطلق .

وهنا حفز هذا الإدراك جميع الناس لدرء الحرب ..

كما أُتيح للرأى العام العالمى أن يعرف حقيقة دور الطاقة الذرية فى السِّلْم ..

إنه الرخاء العميم الذى يجعل الأرض فى بضع سنوات فردوسًا ما مثله فردوس .

وهنا انبعث الناس جميعا يجلجلون بدعوة السلام ..

ولئن كانت حضارات كثيرة قد تقوضت فيما سبق من عصور بين يدى الإنسان، فلأنه لم يكن قدِ عرف بعد، قيمة وحتمية إدراكه بالأشياء، ولم يكن نوعه البشرى قد تهيأ بعد لآداء حقوق تلك العلاقات ..

أما اليوم، فقد أدرك الانسان، وصار الناس أكثراستعدادًا لفهم العلاقات وتُحمل تبعاتها وسيصيرون غدا، وبعد غد،

ودائمًا أكثر فهمًا وأكثر استعدادًا ..

ولن تهب الرياح التى تنبأ بها الشاعر"اليوت"والتى ستجئ حسب نبوءته لتكنس بقايا البشرية المتحجرة الفانية، والتى ستعوى قائلة :

"هنا. عاش قوم كرام لايؤمنون بإله .."

"وأثرهم الوحيد الباقى هو طريق مُعبَّد بالأسفلت"

"وألف كرة من كُرَات الجولف" ...!!!

أجل، لن تهب هذه الرياح...مادامت البشرية قد عرفت، وما دامت قد أدخلت فى اعتبارها الأكيد الراسخ، تعميم الثقافة...

* * *

قد يرى بعض السادة أن الثقافة تفقد عظمتها وقيمتها حين تنتقل إلى الكافّة وتصير طَوْعَ أيديهم ..

وهذا يشبه قولنا: إن الشمس تفقد الكثير من وجاهتها وعظمتها كلما وقعت أشعتها على الأعداد الكثيرة من الناس، سيما أعداد الدهماء والسوقة..!!أى منطق هذا ..؟؟

إننا لو رأينا رجلاً جباراً، يكتم أنفاس الناس ويكمم أنوفهم، حتى لايزحموه فى تنشق الهواء، أو حتى لايحدثوا فى الهواء أزمة !!، لما كان أدعى إلى العجب، من هؤلاء الذين

يخافون على تفوُّقهم، أو يخافون على الثقافة نفسها أن تغيض وتفنى، حين تقترب الكافة منها، وتغترف ..!!

فالجماهير، هي الإنسان في دوره التاريخي..هي الإنسان في حركته النامية..هي الإنسان في كينونته الصائرة..والإنسان هو الفكر المريد..فأي شئ يعنيه حرمان الجموع من الثقافة بأفسح وأرحب مدلولاتها ..؟؟

إن ذلك لايعني قتل الإنسان، فالإنسان لم يوجد لتقتله المحاولات التعسه، أو تطويه الزوابع الضالة.. وإنما يعني فقط العمل ضد طبيعة الإنسان، وعمل كهذا يحمل بذور تفسُّخه وانحلاله من أول وهلة

* * *

ولكن أي نوع من الثقافة نقدمه للناس ..؟؟

هنا نلتقي بنقطة البدء الثانية، وهي طبيعتنا الإنسانية.. لقد ذكرنا آنفاً، أن للثقافة نقطتي بدء.. الجماهير الإنسانية، والطبيعة الإنسانية.. ولقد تحدثنا عن صلة الجماهير بالثقافة، والآن نتحدث عن صلة الطبيعة الإنسانية بالثقافة أيضاً ..

إن طبيعتنا الإنسانية، تملك البوصلة التي تحدد وتشير إلى حاجاتنا الثقافية ..

هذه الطبيعة التى لم تخلق بين عشية وضحاها..وإنما تكونت عَبْر ملايين السنين، وأصبحت تمثل كَوْناً هائلاً زاخراً بالرُّؤى والتجارب، والإمكانيات ..

إنها هى التى تتجه بنا إلى الفلسفة، فنتفلسف،وإلى العلم، فنكتشف.

وثقافتنا نحن البشر، إنما تعمل فى خدمتنا، وتهيئة وسائل ارتقائنا .. من أجل هذا لايكون طريقها السوىّ أن تبدأ بالمُثُل العُليْا..هابطة إلى طبيعتنا..بل أن تبدأ من طبيعتنا الإنسانية متجهة صوب القيم والمثل..هذا إذا اعتبرنا المثل العليا شيئا خارجاً عن طبيعتنا، وهى ليست كذلك فيما نرى..

وإن حنيننا الفطرى إليها حتى ونحن فى حمأة الرذيلة، وشوقنا الدائم إليها حتى ونحن فى متاهات الشهوة، ليشيران إلى أنها، أعنى مُثُلَنا العليا، ليست فى الواقع سوى جزء من طبيعتنا تَاهَ منا فى زحمة الحياة. ولا تفتأ طبيعتنا تعمل جاهدة لاستِرداده، وتجرى بنا وراءه، كما تجرى الأم الحانية وراء وليدها الغائب .

فتوجيه الثقافة، ووضعها تحت إمْرَة الوصاية صيانة للعُرف السائد والقيم السائدة عمل غير صالح، لأن جهة الاختصاص

الوحيدة في توجيه الثقافة، هي طبيعتنا الإنسانية ممثلة في الإدارة الكلية الخيِّرة لبني الإنسان.. كما أن الثقافة كقوة واعية، هي التي تملك تحديد المواقيت التاريخية للمُثُل العليا، وللفضائل الاجتماعية ..

وإذن فمن الهذر والفضول،أن يتلَمَّظ ناس بهذا السوءال:

هل تُوجَّه الثقافة، أم تُترك حرة .. ؟؟

إذا كان مفهوم التوجيه، استقصاء حاجاتنا الثقافية دون أى مساس بحرية الكلمة، وحرية الثقافة ـ فَنِعِمَّا هو..أما إذا كان مفهومه تحديد الدروب والأزقة التى تمشى فيها الثقافة على استحياء وحذر، فهنا تصبح الحاجة ماسة ومُلحّة لأن ندرك رفض الثقافة لكل توجيه دخيل .

إن الثقافة حتى حين تنطوى على جرأة، يحسبها البعض تمرداً، .. يجب أن تظلَّ طليقة ..

وإننا حين نستعرض فترات التمرد الفكرى فى تاريخ البشر، نجدها نفس الفترات التى تحددت خلالها المصائر العظمى لنا، واستبانت عندها معالم طريقنا الصاعد .

أن تمرد سقراط، وكوبرنيكس، وجاليليو، ونيوتن، وابن رشد، والفارابى، وطرازهم القويم من الأفذاذ، كان ضرورة

بقدر ما كان فضيلة..ليس لأنه اكتشف قوانين هامة وهدى إلى فلسفات قيمة فحسب..بل لأنه قوّض الإيحاء المستمر، والإملاء الضاغط، والتقليد الساذج؛ وأتاح للعقل الأنسانى أوفر حظ من استقلال الشخصية واستقلال التفكير .

إن الالتزام نقيض المعرفة ..

فالالتزام، توقُف، وجمود، بينما المعرفة تطلُّع، وانتقال، وكشف وحركة مستمرة ..

وإذا كان العلم الذى يزن ويقيس، ويتوسَّل بالمعادلات وبالقوانين، كثيراً ما يغادر يقيناً إلى ضده..فهل يكون من العدل والمنطق إذن، أن يعكف الناس على رأىٍ ما، باعتباره الحق المطلق الذى لاينبغى لهم أن يجاوزوه .. ؟؟.

وهل ثمة تفسير لتوجيه الثقافة غير هذا.. ؟؟

صحيح أن الإلتزام كان نافعاً..إذ أنه طالما حفز أصحابه إلى التخصص والتعمق، واستِكْناه بواطن الفكرة التى هى موضوع الالتزام، مما يعطى المعرفة فرصة ومجالا..ولكن بعد سيادة العلم..والعلم بطبيعته يملك رغبة حادة فى التقصى، ويملك قدرة فائقة على بلوغه.. لم يعد ثمة مكان للالتزام، ولا مكان لما ينجم عنه من تعصب، وغرور، وركود .

وهكذا نصل إلى الإجابة السديدة عن السؤال السالف:

ـ أى نوع من الثقافة نقدمه للناس ..

إنها الثقافة كلها، والمعرفة جميعها ..

فالثقافة كالطب، لاتعرف الحلال والحرام ..

كما أن جميع أعضاء الإنسان فى عين الطب سواء. ليس فيها ماهو عورة.. وما هو غير عورة.. فكذلك موضوعات المعرفة كلها بالنسبة للمعرفة، ليس فيها ما هو حلال، وما هو حرام .

فالحظر ـ أياً كان لونه ـ لاسلطان له على الفكر، ولا ينبغى أن يكون له سلطان على الثقافة الموضوعية الأصيلة .

ولا بد أن نقف هنا لنقرر أن الفكر الإنسانى لاقى من الحظر فى كل العصور، وفى كل البقاع ما كان كافياً للإجهاز عليه لولا مناعته الفذة وطبيعته الخالدة .

وانطلاق الفكر، وانطلاقنا معه، رهينان بما نقدمه له من تقدير وولاء وفهم سديد لحقوقه ولِدَوْره ..

أجل،على المجتمع الإنسانى كله أن ينفُض يديه،ويغسلهما من غبار وأوضار المعركة الخاسرة التى حاولها مع الفكر.

إن الخطر الأخلاقى كثيراً ما يجئ ثمرةً فَجّة لِلَغَطٍ كثير

وسأضرب مثلا .. الحُبَّ

الحب على رأس القيم العليا للبشرية. وكلما شحذت البغضاء أنيابها بين السياسات والدول، بدت حاجتنا إلى الحب أكبر وأكثر..وأيضاً كلما رفعت الأنانية أعلامها، ازددنا هتافاً بالحب ، واستنجادًا به .

فما هو الحب ؟

إنه فى التحليل النهائى لحقيقته، تعبير حتمى عن طبيعتنا الانسانية، وهو من حاجاتنا الأساسية التى نشترك فى حتمية الظفر بها ـ أفرادًا، وجماعات..

والغبطة التى يُفيئُها الحب إنما تُمثل فى الحقيقة، فرح النفس بالعثور على تناسقها .

ذلك أنه حُبَّك إنساناً ما، إنما يمثل حالة تناسق تفتقدها وحين يظفر هذا الحب بتحقيق ذاته، وتدرك أنت الشئ الذى أحببت، تجيئك الغبطة والراحة. لأن نفسك آنئذ، تكون قد عثرت على تناسقها المفقود .

وهكذا، فالحب ليس مجرد نزوة.. بل إن كلمة"حب"تكاد تكون تعبيراً هزيلا عن حقيقة الحب ..

تكاد تصلح للتعبير عن الانفعال الحبِّى أكثر مما تصلح

تعبيرا عن حقيقة الحب نفسها .

وقديما قيل، وإنه لَحق:"فاقد الشئ لايعطيه"..فلا يستطيع أحد أن يهب الآخرين حُبَّه وقلبه...إلا إذا كان يملك أولا هذا الذى سيبذل منه ويعطى .

ولكن كيف لايملكه، وقد قلنا إنه ـ أعنى الحب ـ انعكاس لطبيعتنا وحاجة أساسية من حاجاتنا .. ؟؟

أجل، إن فقدانه، ممكن إذا واصلنا رَدْم منابعه فى طبيعتنا.. ولنتحدث بوضوح أكثر .

إننا نرجو من الحب، أن يجعلنا ــ نحن البشر ــ إخوة متاحبين ..

والحب، ليس جهازاً يُشترى من السوق حيث نبلغ به الغرض العظيم.. ولكنه وظيفة من وظائف طبيعتنا الإنسانية، وتعبير عنها. ونشاط لها..أى أنه يبدأ رحلته من طبيعتنا..

وطبيعتنا تموج بأهواء عدّة. وأرجح هذه الأهواء حتى يومنا هذا، هو الهوى الجنسى..لذلك لبث الحب زماناً طويلاً لايكاد يعنى شيئاً سوى تعبير عن الهوى الجنسى، وإشباع له .

وعلى الرغم من جهود الديانات، والفلسفات التى حاولت الارتفاع بمستوى الحب، فقد كانت الطبيعة الإنسانية

من القوة بحيث ظلّت ممسكة بنقطة انطلاق..ولم يكن ذلك عبثاً. بل إن المراحل التى سارها ويسيرها الحب فى صحبة غريزة الجنس، إنما تتمُّ لصالح المُثُل العليا التى نهفوا إليها..ذلك لأن المُثل العليا لاتستطيع أن تخفى عنا طبيعتنا، والمجتمع الإنسانى - فى واقعه - لايقوم على أساس من مثل عليا منفصلة عن طبيعته..بل يقوم على أساس من طبيعته الإنسانية المتضمنة مُثلها العليا .

وما دام الحب حتى اليوم، ورغم كل المحاولات المثالية . لايزال إلى حد كبير مُفعما بالجنس، معبراً عنه، فمعنى ذلك بالبداهة أن طبيعتنا الإنسانية لاتزال متطلعة إلى هذا المسلك لتحقيق ذاتها، وأن الحب الجنسى لم ينته بعد عصر سيادته ..

وهذا يدعو إلى أن نتقبل هذا الحب.بدلا من أن نكافحه ونقاومه مقاومة تطيل أمد بقائه، ونرجئ قدوم حب آخر أسمى وأشمل لن يتأتّى له المجئ حتى ينجز الأول عمله، وينتهى دوره.

لقد بدأ العلم بالسحر المضحك، والسذاجة المثيرة وحَجَر الفلاسفة ..ولقد ظل كذلك آلاف السنين ..

وبدأ التدين ـ قبل أن يأتى الإنسان من ربه هُدىً ـ بعبادة الطَوْطَم، وعبادة الأشباح، والأسلاف والخرفات...

ولبث كذلك آلاف السنين ..

ولكن فى النهاية تجلّت الحقيقة الناصعة للعلم، والحقيقة الناصعة للدين ..

إنى أضرب هذا المَثل، لنبصر كيف أن أعظم قواتنا الإنسانية المتمثلة فى الدين وفى العلم، لم تنتج من سنن التطور الطبيعى .. وأنها عاشت بأخطائها حتى نَضَتْها آخر الأمر عن نفسها وتفوقت عليها ..

كذلك كل نشاطنا الإنسانى، يعيش بأخطائه حتى يتفوق عليها ..

وكذلك الحب يحيا ـ الآن ـ بأخطائه ولسوف يتفوق عليها ..

إننا لكى نحصل على ذهب خالص، لانقول للأرض: اعزلى ترابك .. وأخرجى ذهبك .. ! !

وإنما نأخذ من مَظَانّ الأرض كل ما هناك .. ترابه . ، وخشاشه، ووحله..ثم نبدأ العمل، فنستخرج الذهب الخالص، وننفى الرواسب كلها ..

كذلكم الأمر ـ إذا أردنا أن نظفر بحب إنسان يُدفئ البشرية المقرُورة، ويرفعها فوق مستوى الضّغن والعداوة ..

أن نَدعَ الحب يزاملنا فى رحلتنا ..

* * *

كان "أفلاطون " يقول :

"إن أشق صداقة يمكن الحصول عليها . هى صداقة المرء لنفسه " ..

ونحن البشر، كثيراً ما نخاصم طبيعتنا فنثبت عجزنا المؤسف عن أن نكون أصدقاء ومحبين..وقضية الحب التى ضربناها مثلا، تكشف عن إحدى تلك الحالات التى نعجز فيها عن أن نكون أصدقاء لأنفسنا ولطبيعتنا ..

إن كثرة كثيرة من الناس، تتطيّر وتثور عندما يُجَلّى حاجة الحب، أو يُوضح مشاكل الجنس، كاتبٌ أو فنان..؟ فلماذا ؟؟

يقولون: إن الكلمة المطبوعة كاسحة ..

فلتكن كذلك.. ولتكن أكثر من ذلك. فأى بأس..؟ إن هذا هو المناخ الوحيد الذى تكَوّن الإنسان خلاله .

لقد تُرِك ملايين السنين للعراء، وللثلوج، وللخَواء، وللوحوش، والصواعق والأعاصير، لأن ذلك كله كان أنجع الوسائل لاستكمال كيانه الصامد الصاعد الجبار ..

فلتعش روحه، وإرادته، وأخلاقه فى نفس المُناخ..وخير العواقب فى انتظاره..وكما انتصر جسده، ستنتصر رُوحه .

على أن فى سلوك الناس تجاه الكاتب أو الفنان الذى يجعل الحب والجنس موضوع قلمه أو ريشته .

أقول: فى سلوك الناس هذا، ما يثير الريبة، وما يدل على أن وراء مسلكهم هذا سوءَ تقدير للأدب وللفن، وسوءَ فهم لوظيفتهم ..

برهان ذلك، أنهم لايضيقون صدرًا، ولا يأسفون أبدًا، ولا يخافون على أنفسهم ولا على أبنائهم وبناتهم من كلمة العلم فى الحب وفى الجنس ..

مهما يقل العلم، ومهما يُفِض فى الحديث عن جوهر الحب ودوافعه، ومهما يُفِض فى الحديث عن الجنس، وعن طبيعته، واحتياجاته، وانحرافاته، ووظائفة العضوية والنفسية... لايخافون حديثه، ولا يتطيرون منه ..

فلماذا يخافون ويتطيرون من الكاتب، ومن الفنان..؟؟ إن الأدب والفن، يؤديان نفس العمل الذى أدَّاه العلم..ولكن بأسلوبهما وطريقتهما ..

إن مهمة العلم أن يكتشف الخصائص الذاتية للشئ..

أما الأدب مثلاً، فمهمته أن يصور الشئ في كل واقعه، وفى كل علاقاته، ثم يستشرف الغايات البعيدة، والتطور الممكن لهذا الواقع ..

فممَّ نخاف ونُحاذر ..؟؟

إن حياتنا تقترب من كمالها كلما أخذنا بناصية الوضوح.

ولقد عشنا زمنًا طويلاً نقتات بالظنون وبالهواجس، وبالخرفات .. وطالما صُغْنا حياتنا وسلوكنا وَفْق أوهام ما كان أبعدها عن الحقيقة .

وإن الإنسان لهو القيمة الوحيدة فى عالَمه. وعلينا أن ندرك هذا جيدا .

وما الصدق، والخير، والجمال، والحب، وكل هذه المعالى سوى تعبيرات ملائمة تعكس طبيعته العظيمة، وتنعكس عليها مشارف مستقبله الواعد الجليل ..

وإذن، فلا مكان للخطر الأخلاقى فى فكره، ولا فى ثقافته ..فالعمل الأخلاقى للثقافة إن يبدأ باكتشاف الخطأ.. فكيف تكتشفه، إذا حرّمْنا عليها وسائل معرفته ..؟؟

ليس معنى هذا، أننا نبارك الهذر والإسفاف..فالفرق بين الثقافة وبينهما واضح ومُبين..ومع هذا، فأكاد أحس بالحاجة

إلى تحديد نسبى لمفهوم الثقافة التى أطالب بحقها فى التحرر من القيود، إنها فى رأيى "كل تفكير صادق" ..

كل إنسان يفكر فى صدق وفى أمانة مع نفسه، ومع الحقيقة، فمن حقه أن نستمع له مهما يكن الخطأ المنطوى عليه تفكيره وتعبيره.

إن الصدق يتضمن الشعور بالتبعية: بل هو قمة هذا الشعور .. وحسبنا من الكاتب، أو الفنان، أو المفكر، أو العالِم، ـ أن يكون على هذا الحظ من الشعور بمسئوليته وهو يؤدى رسالته..وهو ينقل إلينا تجربته.. وهو يكشف لنا من المجهول جزءاً لم نكن نعرفه، ولم نكن نراه .

نحن نعرف أولئك المفكرين الذين تحدثوا إلينا عن "مُدُنهم الفاضلة "..

وعلى الرغم من أن معظم تلك الأحاديث وتلك المدن، يمثل مغامرات فكرية،لعب فيها الخيال ببراعة مُفْرطة إلاأننا ونحن نتلوها نُحِسُّ احتراماً أكيداً لها..لماذا ..؟

لأنها تستمد مادتها من معالم تطورنا، ويتضمن سياقها المرح إحساسًا صادقاً وجاداً بمشاكلنا ..

وعلى العكس من هذا..نجد كُتاباً يكتبون عن الواقع

الذى نعيشه، ويصورونه مشهداً مشهدًا ..

ومع ذلك تجئ كتابتهم هازلة، ضَحْلة، قليلة الجدوى..ذلك لأنهم غير صادقين فى شعورهم بما يكتبون. بل غير صادقين فى إيمانهم بأنفسهم كمبلّغين عن الحقيقة، وسفراء لها بين الناس .

وهنا يواجهنا سؤال:

- من الذى يمسك بالميزان، ويميز التفكير الصادق من التفكير الكاذب الهازل ..؟

ونجيب ..

إنه الإنسان نفسه . والإنسان وحده ..

الإنسان المتمثل فى الإرادة الكلية لوعينا، وتفوقنا وفضائلنا ..وهو على صعيد واقعنا القريب، الرأى العام فى أعلى نقاط تطوره وصعوده﴿فأما الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً..وأمَّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرضِ﴾..

إن تحرير المفكر والكاتب، والفنان من وطأة النواهى، ضرورى لبلوغ الكمال الميسور .

والوعى الأدبى والفنى، هو خير هاد يهدى الكاتب والفنان إلى سواء السبيل..وليس من حقنا أن نقول لأحدهما

أو كليهما "كخ" ..

فوظيفة كل منهما "الخلْق"، ومهمة كل منهما أن يكشف لنا عن الجانب الحسَن، فى هذا الذى نراه رديئاً أى أن يكتشف الحسْن الكامن، فى القُبح المائل ..

وهذا يتطلب منه أن يعرض الصورة كلها، قبيحها. وجميلها. بل إنه كلما ركز على القبح ازداد نقيضة تألّقاً وبهاء.

إنما نطلب من الكاتب والفنان أن تكون أغراضهما الأدبية والفنية صاعدة ..

أى أن يدلنا كل منهما على ما يمكن أن يكون، من خلال تصويره لهذا الذى هو كائن ..

وهذا ليس قيداً نفرضه على حريتهما.. بل كشف عن مسئولية هذه الحرية، وهى مسئولية تتسق مع الحرية لأنها نابعة من صميم العمل الأدبى والفنى، ومن طبيعته .

وقبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث، نود أن نؤكد أنه لاشئ يهدى للتى هى أحسن، ويبث الفضائل اليانعة فى النفس بثاً عظيمًا مثل الثقافة إذا مازجت طفولتنا وبدأت معنا من مهدنا .

إن الثقافة قوة أخلاقية، لاعلمية وحسب.. وإنا لننتفع بها

كقوة أخلاقيـة كلما بدأنا بها مبكرين. أى إذا ملأنـا وعـى الطفل برُوح الثقافـة وروح المعرفة وذلـك يقتضـى أن تتوخـى مناهج التربية السبل الآتية ":

*أن يدرك الطفل أننا لانُعلمه، وإنما نقدم إليه خبرتنا .

*وأننا لانتحكم فيه، وإنما نُشير عليه ..

*وأنه إذا كانت لنا عليه حقوق، فهى ليست على حريته. بل على علاقاتنا المشتركة لاغير .

*وأننا نعاونه لكى يصير"إنساناً"لامجرد فرد..أى أن تتجلى الشخصية الإنسانية فيه بكل نبوغها واستقامتها، وتفوقها تجلّياً كاملا.

*وعلينا أن نُنَمِّى حاسة الجمال فى نفسه، فبقدر ما تكون حاسة الجمال نامية ونابضة،يكون ميلنا للعظمة، وجنوحنا عـن الإسفاف.. وعندئذ لانرى الكذب دبلوماسـية..ولاالكِبْر اعتـداداً..ولا السـرقة ربحـاً..ولااللـؤم براعـة..ولا الأنانيـة تسامياً..ولا نرى الحب مجرد نزوة..ولا المرأة مجرد ضجيعة ..

*وينبغى أن نجنبه الحظر، والنهـى مـا استطعنا..إن كلمـة "لاتفعل"تَهَبُ الطفل نشاطاً سلبيا .ولكـن"افعـل"تروضـه علـى النشاط الايجابىالفعال..فبدلاًمن أن نقول له:لاتكذب..لنقل له

قل الصدق ..

أجل، لنجعل أساس ثقافته الأخلاقية"افعل"بدلا من "لاتفعل" ولنحذر أن نقولها جافة غليظة.. بل لتكن"من الخير أن تفعل" ..

إذا توخّت الثقافة هذه السبيل، وغمرنا بها أطفالنا؛ فليس هناك شئ سواها يهب أسمى الفضائل، وأعظم الأخلاق ..

* * *

وكما أن الثقافة ترفض كل حظر أخلاقى عليها، فهى أيضا، ومن باب أولى، ترفض كل حظر آخر..ولقد أدرك ذلك كثيرون من المفكرين الكبار. وإذْ كانت السياسة تتمثل أكثر ما تتمثل فى الدولة كنظام، فقد دفعتهم الغيرة الشديدة على الفكر وعلى الثقافة إلى مهاجمتها، والتبشير بنهايتها .

أعلن"هويتمان" أن وظيفة الدولة. إعداد الناس لمباشرة أعمالهم بدونها ..

واعتبرها ـ نيتشه ـ"وحشاً جريئاً فى الكذب والسرقة.كل ما تقوله تكذب فيه، وكل ما تملكه تسرقه" ..

ووصفها ـ تولستوى ـ بأنها "اتحاد مُلاّك" .. !

وتعجّل ـ باكونين ـ نهايتها، فتنبأ بأنه فى عام"١٩٠٠"

ستلاقى الدولة مصرعها وتفقد كل دواعى قيامها ..

وحتى فى انجلترا المحافظة ارتفعت أصوات مفكرين وكتاب منادية بتصفية الدولة بكل منظماتها، وتحويل مجلس العموم واللوردات إلى"مخازن للسماد" ..!!

والحق أن إمعان الدولة فى توكيد سلطانها من جانب، والصراع السياسى بين دولة وأخرى من جانب آخر، قد سببا للفكر الإنسانى، وللثقافة من المتاعب، وألحقا بهما من الأذى والضُرّ ما يجل عن الوصف..وكان هذا الأذى يبلغ أعلى مناسيبه دوما فى عصور الظلام، والانحطاط ..

ولكن الفكر رغم ذلك كله حقق جميع انتصارته، وقال كل ما كان يريد أن يقوله..وهو اليوم فى عصور الرُشد والحضارة. أكثر قدرة على تحقيق ذاته، وإذعة كلماته..وإذن فتوفير الجهود المناوئة له هو وحده العمل الحكيم .

ذلك أن تعطيل فكرة لاتعطلها وحدها بل تعطل معها أفكاراً كثيرة كانت ستتولد منها ..

إن بذرة"المانجو"تحمل فى باطنها آلاف الأشجار،بل تحمل عدداً لاينتهى من أشجار المانجو ..

كذلكم الأفكار ورُؤى العقل، يحمل كل منها أعداداً

لاتنتهى من الأفكار والرؤى وخنق فكرة واحدة، يعنى خنق عدد لاينتهى من الأفكار.، وكما نَتْنَشَقُ جميعاً هواء واحدًا، فثقافتنا نحن بنى الانسان واحدة ..

صحيح أننا نأخذ الهواء النقى،ونتأى عن الفاسد الآسن .. وفى الثقافة سيكون لنا نفس السلوك، لكن ليس من حق أحدٍ ما أن يحتكر لنفسه الحكم على الثقافة وتمييز نقيها من فاسدها.

إنما الفكر الإنسانى ينقد ذاته، وينفى خبثه..وقيام فكرة فى وجه فكرة أخرى..هو الذى يميز طيِّب الثقافة من خبيثها.. وليس ثمة فكرة تستطيع أن تفرض نفسها على المستقبل،وتحجُر عليه،وتمنع ميلاد تفكير جديد، وأيضاً من باب أولى، ليس من حق السياسة ذلك..وهى لاتملك قط تعقيم الفكر الإنسانى ولا تقدر على ذلك حتى حين تريد ..

قيل: أن الإسكندر زار ذات يوم الفليسوف"ديوجينز" وسأله فى تواضع وأدب :

أليس لسيدى الفليسوف ما يأمر به،فيكون لى شرف تنفيذه ..؟

وأجابه الفليسوف الزاهد الكبير :

- نعم لى حاجة واحدة..أن تتنحَّى بعيداً حتى لاتحجب

عنى ضوء الشمس ..!!

إن عبارة"ديوجينز"هذه، هى كلمة الإنسان لكل سلطان يُريد أن يَقْترب منه ولو بالنّعمة والزُّلفى ..

- تنحَّ بعيدًا.حتى لاتحجب ضوء الحقيقة ...

فنزاهة التفكير أثمن مقوماته، وهى تقتضى النُّأْىَ عن كل إغراء، والتفوق على كل رهبة، وتقتضى التبتُّل للفكر، والعزوف عن كل ماقد ينجرف به عن رسالته العظمى .

ولقد كانت أخصب أيام الفكر الإنسانى وأعظمها، تلك التى اتخذ فيها من عقول الأباة وأفئدتهم موئلاً ومُقامً ا..والتى كان فيها يمثل مركز الجاذبية..لكل ماحوله، فلايسعى للملوك والسلاطين.بل هم الذين يسعون إليه.. لم تكن شخصية.. "المفكر"تختفى، لتأخذ مكانها شخصية"الوصولى"بل كان جلال الموهبة يملأ نُفوسَ المفكرين،فلا يبقى هناك مطمع يستطيع أن يفتنهم، ولقد تضاءل أمام شِبَعهم العقلى والروحى كل مافى الدنيا من متاع،وهرب أمام فكرهم الصامد كل مافيها من بطش .

هذا هو المستوى العالى الذى تعبر عنه كلمة"ديوجينز" والذى يعبر عنه كذلك قول المفكر الإسلامى الكبير الإمام

الشافعى :

أنا إن عشتُ لست أعدم قوتًا وإذا متّ لست أعدم قبرا

فعلامَ أُذِلّ للناس نفسى وعلامَ أخاف زيداً أو عَمْرا

لكن، ليس الخطر الأخلاقى، وليس الخطر السياسى، هما وحدهما، القوة التى تُناوئ الفكر وتتحدى الثقافة..فهناك أيضاً ـ الخطر الاجتماعى ..

ونحن نعنى بالخطر الاجتماعى قوة التقاليد، والتقليد..إن للتقاليد ضرورتها وقيمتها، فهى القوالب التى تعيش خلالها مراحل النمو والتطور للناس..ولكن لها كذلك مثالبها ومضارُّها..وشرُّ مافيها أنها تُغرى بالتقليد السلبى الذى يعطّل قوى الخلق والابتكار ..

والثقافة تعنى ـ دائمًا ـ التخطى والمجاوزة: وكل نقلة جديدة لها تتضمن خيرما فى سابقتها. فهى إذن لاتهدم التقاليد بتجديدها وابتكارها، وإنما تحولها وتطوّرها .

إن كل طوْر جديد من أطوار الثقافة، يبدأ بأن يتلقى خير ما قبله، ثم يستوعبه ويمضى به فى انطلاق جديد: وهذه العملية الدائمة تمارسها الثقافة بوسائلها دون ما حاجة إلى تدخل منا أو من أية قوة خارجة عنها سوى قوة الإنسان

المبتدية في حركة تاريخية .

وإذا نحن حاولنا أن نعرف :

لماذا باحت حقيقة الجاذبية بسرِّها لإسحق نيوتن.؟

لماذا تكشَّفت كروية الأرض وحركتها لكوبرنيكس وجاليليو .؟

لماذا تبدَّت نظرية أصل الأنواع لدارون .؟

ولماذا بزغت فكرتها من قبل في وعى ابن مسكوية ..؟؟

لماذا تفتحت آفاق الفلسفة لابن باجه، وابن رشد، وابن سينا، والفارابى .؟

لماذا نبغ جابر بن حيَّان فى الكيمياء، وكان من كبار رُوادها .؟

لماذا أسلس علم الفلك قيادة لِلْبَتَّانى، وأبى الوفاء البوزجانى، وعبد الرحمن بن يونس .؟؟

سنرى وراء كل هذه العبقريات تفوقاً على التقاليد، وعلى التقليد..فالعصور التى تجلَّت فيها تلك العبقريات كانت محافظة فى تفكيرها، وكانت ترى فى هذه المحاولات ضروباً متعسِّفة من التجديف والمروق. ولو أن أولئك الأفذاذ وهَنوا، واستكانوا، لما قُدِّر لهم أن يؤدوا الأدوار الكبرى التى أدوها .

بل، لو أن المسيح نفسه، وقف عند تقاليد قومه ومعتقداتهم دون أن يتخطاها ..

ولو وقف الرسول عند تقاليد الذين يخرّون للأصنام سُجَّدا ـ لما كانت المسيحية، ولا كان الإسلام ..

فالثقافة ـ إذن ـ لكي تؤدى وظيفتها يجب أن تتحرر من كل تبعية للتقاليد، وهى بتحررها هذا لن تكون كالثور فى متحف الخزف . ولن تبث الألغام المهلكة فى أرض التقاليد القائمة..فبين الثقافة والتقاليد روابط تاريخية، تجعل كلاً منهما يعطى الآخر ويأخذ منه.. وإنما ستهدم الثقافة من التقاليد كل ما استنفذ وجوده وبقائه، ويجب أن تُمكن من هذا لأنه من مقتضيات تطور الحياة الإنسانية كلها..

حين تسيطر التقاليد على الثقافة تتحول ـ أعنى الثقافة ـ إلى مجرد تقليد، وترديد، واجترار. وتأخذ طابعاً محلّياً ضيقاً عَطِناً..وتُفرزعفونات كثيرة أهونها التعصب المحموم لها.. وعندئذ يصبح"كبت الحقيقة" هو الفضيلة التى يثمرها الذكاء وتقتضيها المسايرة .

وإنا لنعلم أن شرَّ ألوان الاستبداد، هو"استبداد الكلمة"..

وإن بضع كلمات، كانت تقول"الأرض مسطحة"ظلّت

تستعبد البشر أحقاباً تلو أحقاب، حتى إذا انشقت الصفوف المذعنة عن بضعة أفذاذ أرادوا أن يجاوزوا الضباب إلى مطالع الضوء..هبَّت التقاليد فى وجوههم باطشة فاتكة، فَسَجنت، وشَنقَتَ، وأحرقت .

إن الثقافة من عمل الإنسان..ولابد لها من مجاوزة التقليد إلى الابتكار، والمحلّية إلى الشمول.فذلك من صميم طبيعتها .

وحيث يوجد"إنسان"فثَمَّ وطنها..فليس لها وطن خاص ولاجنسية خاصة ..

فالثقافة الماركسية السائدة فىروسيا وفى الصين وفى كثير من بقاع الأرض ـ اكتشفها عقل ألمانى ..

ونظريات ابن الهيثم فى الضوء..واكتشافات أبى بكر الرازى فى الطب والكمياء..ونظرات ابن رشد والفارابى وابن سينا فى الفلسفة. هى التى علّمت أوربا، ولاتزال تقتعد مكاناً جذريًا فى ثقافة أوربا السامقة ..

كما أخذ علماء العرب وفلاسفتهم هؤلاء، عن الثقافة اليونانية، التى تَلَقَّت هى الأخرى عن الثقافة المصرية .

فالمحلّية والتقليد، دخيلان على الثقافة، وهى ترفضهما بقدر ماتسعى إلى الانتشار والابتّكار وحين تتأثر ثقافة بأخرى،

فهى فى الواقع لاتقلدها إلا إذا وقفت عندها، وأخذتها بطريقة النقل الحرفى، وشَفِّ الصُّوَر..وهذا شىء غير ممكن حتى لو أراده الناس..لأن طبيعة الثقافة تقودها.وطبيعتها هى الاستيعاب والتحويل والخَلْق ..

وكل ثقافة تتأثر بأخرى فى هذه الحدود..والإيمان بهذا ضرورى للناس كى يوفروا الجهود العدوانية التى ينفقونها عبثا ضد الثقافة .

* * *

إن الجهل بعالَمية الثقافة يحمل على التعصب الذميم والخوف الأهوج..التعصب لثقافةٍ مَّا،والخوف من ثقافةٍ أخرى.

كما أن ضراوة العبقرية، وعبادة البطل، حين يكون هذا البطل مفكراً..بعض نتائج هذا الجهل..وهما يشكلان خطراً على الثقافة جدّ عظيم .

فنحن حين نؤمن بثقافةٍ ما، أو بعبقريةٍ ما، إيمان العوام ـ فإن هذا الإيمان يدفعنا غالبًا، أو دائمًا، إلى الاستخفاف بما عدا هذه الثقافة . وهذه العبقرية .

والذين تستَرِقُّهم وتستعبدهم عبقرية فرد، كثيراً ما يُحرَمُون الانتفاع بعبقريات الذين يناهضونه .

وكما يحدث هذا للأفراد، يحدث للأمم والجماعات..

ولذا فإن مناصنا العظيم، هو عبقرية الإنسان ..

وعبقرية الإنسان لايملكها واحد، ولامائة، ولاألف.. لاتملكها أُمة..ولاجيل..ولاعصر..إنما يملكها النوع كله، ومَجْلى ظهورها جميع الزمان.، وجميع الناس ..

والثقافة ليست معرفة فحسب، بل هى كذلك نفوذ ..

ونفوذنا يتسع بقدر ما يكون معنا من ثقافة.كما أن كل إهمال لِثقافة، وإعراض عن فكرة، ومناهضة لمعرفة، يعنى نقصاً كبيراً فى نفوذنا ..!!

والثقافة تحرير، لااستعباد ..!

وهى بهذه المثابة تدعونا لأن نتعلم من جميع المعلمين، ثم نسير وحدنا دون أن نكون ظلالاً للآخرين بجرد ظلال ..

وهذا واجبنا نحن بنى الإنسان فى كل زمان، وفى كل مكان.. أن نتعلم من جميع المعلمين دون أن نفقد فى غمار عظمتهم استقلالنا الفكرى، ودون أن نتحول إلى إمَّعات تائهة

أو على حد تعبير"امرسون"[١]

"اشكروا الله على هؤلاء الرجال الأخيار.."

---

[١] كتاب (مختارات من امرسون)

"ولكن، ليقل كل منكم:أنا كذلك إنسان ـ "

هذا هو الامتياز العظيم الـذى تقدمـه الثقافـة لنـا، وتُفيئـة علينا. وإنها لتمنحه بقسطاس مستقيم لجميع الذين يسعون إليه ويريدونه..جميع الذين يعلمون أن الحقيقة ليست ملكـاً لأحـد، ولاملكـاً لجماعـة، ولاملكـاً لعصـر..جميـع الذيـن يهربـون مـن الرق.حتى حين يكون استرقاق الكلمة الصادقة نفسها .

وهـذا الامتيـاز كذلـك، هـو الحـد الفـاصل بـين الثقافـة والتعليم ..

إن التعليم يُؤهلنا..أما الثقافة فتعلن سيادتنا، وتؤكد تفوقنا على كل عوامل التبعية والخضوع ..

وحـين نتتبـع جميـع الذيـن اكتشـفوا لنـا قوانـين الطبيعـة، وقوانين المجتمع، وجميـع الذيـن نقلونـا مـن عصـور الجهالـة إلى عصـور النـور والعلـم، نجدهـم جميعـاً وبغـير اسـتثناء مـن المثقفين..أعنى من الذين جـاوزوا التعلُـم إلى الثقافـة.. جـاوزوا الاطلاع إلى الانشاء والخلْق.جـاوزوا عبـادة البطـل المفكـر إلى اكتشاف البطل فى أنفسهم وفى ذواتهم ومواهبهم ..

أجل..لنشـكر الله على جميـع المعلمـين والرُّواد، ولكـن لنفسـح صفوفنـا لآخريـن وآخريـن فـإن معجـزات الإنسـان

لامنتهى لها ..

إن شرَّ ما نصنعه هو أن نحمل المفكرين على نبذ آرائهم لمجرد أنها لاتتسق وآراء آخرين من الأطواد الشامخة، والعبقريات الفذة.. أو لأنها لاتتفق والعُرف السائد والمعرفة القائمة، فكأىٍّ من أفكار نبذها الناس ذات يوم وحاربوها وفتكوا بأصحابها..ثم إذا بها تفرض فيما بعد نفسها، ويتبين العقل الإنسانى أنها حقائق، وقوانين، ومُسلَّمات ..

ومَن الذى أُوتى الحكمة كلها..؟؟لاأحد والذى يظن أنه وَعَى جميع الحقيقة، إنما يجهل الحقيقة جهلاً كبيراً .

ولقد عبَّر عن هذا المعنى تعبيراً سديداً، العالم الكبير ـ لاجرانج ـ حين جعل شعاره :

"لا أعرف" ...!!

وأيضا عبّر عنه العالم الرياضى"ليبنتز" حين قال[1]:

"لَدَىَّ الكثير من الآراء التى ربما تكون ذات "

"فائدة يومًا ما، عندما يُقيض الله آخرين ممن هم"

"أذكى منى؛ فيفحصونها فحصاً عميقاً، ويَصِلُون جمال"

"عقولهم بمجهودات عقلى ..."

---

[1] كتاب "رجال الرياضة"

كذلك عبَّر عنه"نيوتن" فى قوله المأثور :

"إذا كنت قد رأيت أبعد قليلاً مما رآه الآخرون فما لهذا سبب إلا أننى كنت أقف على أكتافهم ..."

وقوله الحكيم :

"لاأدرى كيف ينظر إلىّ العالَم، ولكنى أتراءى"
"لنفسى كما لو كنت غلامًا يلهو على شاطئ البحر"
"وأُسلّى نفسى بين الحين والحين بالعثور على حصاة"
"أكثر ملاسة، أو صَدَفة أكثر جمالاً، بينما محيط "
"الحقيقة العظيم يمتد أمامى،دون أن أعرف عنه شيئاً..!"

* * *

فلتقل كل ثقافة كلمتها، ولتخرج خِبْء تفكيرها، ولتُذِعْ بين العالَمين فلسفتها وآراءها...فليس على ظهر الأرض سلطة أعلى من سلطة الفكر تستطيع أن تزعم لنفسها حق التحكم فيه وحق توجيهه.

والكلمة..هى الفكر منطوقًا، أو مسطورًا ..

وصدقت آية الإنجيل.."فى البدء كان الكلمة"...

فلتأخذ الكلمة كل حقها فى الذيوع والانطلاق..وكل حقها فى أن تظل جليلة عزيزة، فلا نسف فى استعمالها، ولا

نتوسل بها لتحريف الحق، وتمجيد الكذب .

ولندَع الثقافة حرة طليقة، إلا من الضوابط التي تضعها هي لنفسها ولْنرحب بكل ثقافة تثير الذعر في نفوسنا، لأنها دليل على أن بهذه الأنفس خوفاً مُذلا، يجب أن يرحل ..

وبكل ثقافة تثير الشك في أنفسنا، لأنها توقظ إرادة اليقين لدينا، وتزودها بالبصيرة والفهم .

وبكل ثقافة تُسمعنا حشرجة الأنقاض المتهاوية داخل تفكيرنا المُدْبر، لأنها تبشر بميلاد جديد لوعينا ...

وبكل ثقافة تتحدّى أفكارنا وآراءنا، لأنها ستكشف عن زيفها إذا كانت زائفة...أو تزيدنا إيمانًا بها وإصرارها عليها إذا كانت صادقة..

وكلما جعلنا شعرنا نحن البشر - "ثقافة بغير قيود" .

فلنصنع هذا، صادقين .

ولنتق بالفكر الانساني العظيم، ولنمض معه، فإنه يتقدم بنا فوق الخوف، وفوق الظلام ..

التحديد والاختيار

هناك قصة تُروى ..

روبما تكون قد وقعت بذاتها.، وربما لم تقع، ولكن مفهومها يتكرر فى صورلاتحصى،ويُمثل مأزق البشرية كلها.

استأجر أحد الناس رجلاً شديد القُوَى لقطع بعض الأشجار .وعند الغروب، دَهِشَ إذ وجده قد أنجز فى يوم واحد ما كان يتطلب أربعة أيام ..

وفى اليوم الثانى كلّفه أن يَصُفَّ الأخشاب ويَرُصَّها، وأنجز الرجل عمله هذا فى وقت جدّ وجيز ..

وفى اليوم الثالث عهد إليه التاجر بكومة كبيرة من البطاطس، وكلّفه أن يفرزها.وقال له: أما الفاسدة، فانبذها. ثم ضع الجيدة هنا..والأقلّ جودة هناك ..

وفى آخر اليوم جاءه.، وكم كانت دهشته حين ألْفاه لم يُنجز من العمل إلا أقلّة ..

وسأله: ماذا دهاك..ولماذا هذا البطء الشديد..؟؟ فأجابه الرجل:ـ"إن الصعوبة التى أجدها فى الاختيار والتميز بينها، تكاد تقتلنى " ...!!

إنى لأذكر دوما هذه القصة، كلما تراءى لى سعى الناس فى الحياة .

وأذكر معها فى نفس اللحظة، ولنفس السبب، كلمات الفليسوف "سانتايانا" :

"ليست الصعوبة الكبرى فى الحياة أن نختار بين الخير "

"والشر..بل أن نختار بين الخير ، والخير ..."

هذه هى مأساتنا..وفى نفس الوقت هى عظمتنا .

أجل، وهذا مأزقنا العظيم ..!!

الاختيار بين الجيد والأجود...بين الحسن، والأحسن، وليس يبدأ مأزقنا من هنا..من عملية الاختيار ذاتها.. بل يبدأ قبلا من التحديد الذكى للأشياء، تحديد الحسن، والأحسن، وتحديد الردئ الذى سننبذه جانباً...

التحديد ... والاختيار ...؟؟

ياهمامن كلمتين خفيفتين على اللسان،ثقيلتين فى الميزان.!

فهما معراج الحياة البشرية كلها...وبسبب منهما تَمّت جميع خطواتنا الظافرة إلى الأمام .

* * *

ولكن كيف نحدد، وكيف نختار. ؟؟

لقد كان سبيلنا لهذا، ولايزال -"الخبرة والتفكير"...

والخبرة هنا، لاتعنى مجرد نزهة ممتعة؛ إنما تعنى الكدح

والمعاناة وكما يقول "جون ديوى":[1]

"لكى نختبر شيئاً ما، فالذى يحدث أننا نُؤثر فيه،"

"ثم نتلقى نتائج فعلنا، تأثيراً مماثلا ينعكس علينا من "

"الشئ ذاته .."

أى أن الخبرة ليست مجرد مزاولة العمل، بل هى معاناة العمل بكل تجربته وخطئه..ثم هى الألم، أو الشوق الذى يربط كل منهما بالتجربة، ويظل مرتبطاً بذكراها ...

وهكذا، فالخبرة فى حقيقتها ليست مجرد اكتشاف شئ ما، وإنما هى اكتشاف أنفسنا داخل هذا الشئ، واكتشاف روابطنا به، واكتشاف جميع العلاقات التى يعمل داخلها ذلك الشئ نفسه .

وهذا، هو العمل الصعب للتفكير..فالتفكير بدوره لايعنى إدراك المجردات .. لايعنى الأشياء معزولة عن علاقاتها...وإنما يعنى إدراك العلاقات وتمييزها .

يعنى اكتشاف الروابط بين أعمالنا وعواقبها..يعنى الإحساس بمشكلة..ثم ملاحظتها بكل ما تنطوى عليه الملاحظة من شك وحيرة ثم من حدْس وتأويل.، ثم من فحص

---

[1] كتاب "الديمقراطية والتربية"

وكشف وتحليل ..

ويعنى أخيراً ـ المعرفة .

وعندما نعرف، يتسنى لنا أن نحدد، ونختار..وهكذا تبدو المعرفة ولها قيمة ثانوية لاغير ...

أما القيمة الأساسية حقاً، فهى لعملية المعرفة...هى لخبرتنا المنطوية على التجربةوالخطأ والمعاناة..ذلك أن هذه العملية لاتثمر المعرفة الصحيحة فحسب.،بل وتثمرنا أنفسنا،وتصهر كل ملكاتنا، ومواهبنا..كما نواصل عن طريقها تنمية جوهرنا واستعدادنا .

فالناس الذين يتلقون"معارف جاهزة"،ليسوا كالآخرين الذين اكتشفواهذه المعارف،وعانوا خلقها..والطفل الذى تعلم شفاهًا،أن التيار الكهربى يصعق،لن يكون أكثر حذراً، من الطفل الذى عانى التجربة نفسها، وكاد التيارذات يوم يصعقه

وحين تَنقل لوحة بطريق"الشفّ"دون أن تعانى ــ على الأقل ـ عملية رسمهاومحاكتها؛ فأنك لاتكون قد أتيت أمراً مذكوراً ..

فالمعرفة الحقة ـ إذن ـ هى أن تُعانى تجربة هذه المعرفة..

والاختيار الحق، والحرية الحقة، هما أن تعانى تجربتهما..

فبدون معاناة تجربة المعرفة ـ لامعرفة ...

وبدون معاناة تجربة الحرية ـ لاحرية ...

أى أن التجربة والخطأ بالنسبة لشئ ما، هما سبيل وجوده، هما من صميم جوهره وحقيقته ...

فالكمال المطلق في حياتنا البشرية غير موجود ـ أما الموجود فعلا فهو الكمال الميسور .

والذين يريدون "معرفة" بغير خطأ ..

"عُدُولاً" بغير مَيْل ..

و"حرية" بغير إساءة ..

و"فضيلة"..بغير نزوة..جدُّ واهمين ...

وكما أن وجود الخطأ، لايبرر عدم"الفعل" فوجوده أيضاً، لايبرر "سَلب الحق" ...

ومن حقوق الإنسان المقدسة ، أن يختار.

ووقوع الخطأ في اختياره،لايمكن أن يسلبه حقه في الاختيار !

سيما والخطأ من صميم تجربته..والتجربة هي كل شئ في تفكيره، وفي مصيره ...

من هذه البديهة، نبدأ الحديث عن قيمة"الاختيار"في حياة

الإنسان ونحن لانعرض الاختيار ذلك العرض الفلسفى النظرى، الذى يبحث ويسأل: هل الانسان مُجبر، أم مختار..؟كلا... ليس هذا موضوع حديثنا بحال ...

إنما نتحدث عن الاختيار، كضرورة إنسانية.وحقيقة تاريخية مارست عملها ونجم عنها كل ما فى حياة الإنسان من تقهقر وارتقاء ...

* * *

الإنسان الذى قلنا إنه بدأ حياته كإنسان، وهو مُزَوَّد بتصورات هائلة، ومنطو على تجارب مبهمة لامنتهى لها.. والذى صادف فى حياته الإنسانية حشوداً متساوقة متتابعة من الأحداث والتجارب... ليس أصعب عليه من أن يختار...

ولكأنَّ أقداره حين ناطت حياته بالاختيار...وحين أحاطت الاختيار بكل هذه الصعوبة،وتلك المعاناة...قد أرادت أن تشعره، وتملأ رُوعه بأن الحياة جد لاهزال.وأنها ليست منتدى يحتسى اللهوَ سُمَّارُه..إنما هى عمل دائب لايقر قرارُه..

إن بطل القصة السالفة التى بدأنا بها حديثنا هذا، يمثل موقفنا جميعا من الاختيار ...

فلقد كان الرجل أيِّداً، عارم القوة،.شديد الغَلَبَ...يقتلع

الأشجار، ويرص كتل الخشب، وكأنَّ العمل الشاق بين يديه دُمْيةٌ يتلهى بها ويتسلّى...لكنه لم يكد يجلس إلى"كومة" البطاطس، حتى ضعف وبان عجزه .

لم تصرعه"حبات"...البطاطس الضعيفة الرخوة...وإنما أضْناه وبَلْبل خاطره، عجزُه عن التميز بينهما. ولقد كان ذكيًا حصيفاً ذلك الشاعر الذى قال :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهالة فى الجهالة ينعمُ

غير أن هذه الشّقوة بالعقل، من أجلّ مزايا الإنسان وأعظم فُرص تقدمه وسعادته .

والإنسان لم يكتشف نفسه تماماً، إلا حين واجه هذا المأزق العظيم فى حياته...حين سمع نداء بارئه المتعال يُجلجل فى أعماقه:أنْ تقدم .لقد منحتك كل أسباب التفوُّق. فأرنى الآن، كيف تصنع ...

* * *

والاختيار فى مدلوله العميم، يتمثل فى موقف واحد، هو اختيار الإنسان مصيره.

ولقداختارالإنسان مصيره فعلاً،ويتلخص فى هذه الكلمات:

•أن يَسُود أرضه ....

•أن يسود عالمه ...

•أن يسودَ نفسه ...

هذا هو المصير الذى اختاره الانسان وشدَّ إليه الرحال..

والسيادة هنا، لاتعنى سوى التفوق المستمر .

ولقد رأينا كيف ساد الأرض فعلاً وجعلها وطنًا مناسبًا وعظيمًا له...

ورأينا كيف ساد عالمه بكل علاقاته الطبيعية والبشرية ...

وإنما يأخذنا الشك فى أنه ساد نفسه ...

بَيْدَ أَنَّهُ مِن الإنصاف للإنسان، أن نعترف له بالسيادة على نفسه أيضًا. ولن يُعجزنا التماسُ مظاهر هذه السيادة عَبرْ تاريخه وتطوره ..

ونحن فى حقيقة أمرنا، لانستريب فى تفوقنا الروحى هذا، إلا بدافع الإدراك السديد لقيمة هذا التفوق، وإلا بدافع الرغبة النبيلة فى الظفر بالمزيد منه .

هذه السيادة إذن..سيادة الإنسان عالمه، وأرضه، ونفسه، هى الغرض الذى يتمثل فيه مصيره الذى اختاره ..

وثورات العلم ضد الجمود والعجز، وثورات الشعوب ضد الملوك المستبدين، لم تكن تعنى إلا أن الإنسان يمارس

اختياره وأن البشرية تقرر مصيرها .

صحيح أنه مَرَقَ من صفوف البشرية من قاوموا بجيوشهم وأساطيلهم حق تقرير المصير لكثير من الأمم المسالمة، والشعوب الوديعة المنادية بحقها .

لكنَّ تشبث الإنسان بحقه فى اختيار مصيره الحرّ، وتشبثه ببلوغ هذا المصير، كان ـ ولايزال ـ يدفع قوى الشرّ أمامه كالكرة .وكانت الكتل البشرية ـ ولاتزال ـ تثبت أنها، على حد تعبير جيفرسون، "لم تُولَد بسروج على ظهورها". وهكذا رأينا، ونرى، كيف تُحقق الإنسانية كل يوم انتصاراً عظيمًا يقترب بها من مصايرها العظيمة الراعدة..

كان غاندى ــ وهو يطوف قرى الهند ليجمع الناس حول دعوته، وليثير فيهم الإصرار الوديع على نيْل حقهم، وأخذ حريتهم ـ يقول لهم :

"لم يستولَ الانجليز على الهند فنحن الذين أعطيناهم إياها"

"وسنحصل على الاستقلال عندما نتعلم كيف نحكم "

"أنفسنا ، إذن فالأمر لنا....

الأمر لنا ...

هذه العبارة الموجزة كل الإيجاز، هى الطاقة الهائلة التى

انتصر بها غاندى، وانتصرت بها أمته ..

أجل، هى، لامجرد أنها عبارة..بل بوصفها عقيدة آمن بها غاندى، وعلَّم شعبه أن يؤمن بها ..

إنها تمثل القوَى السحرية المخبوءة فى التحديد والاختيار، حين يتضمنان إرادة تنفيذهما ..

وهذه العبارة نفسها "الأمرلنـا"..هـى القـوة النـافذة التـى سار بها الإنسان مخترقا الحواجز متخطياً العقبات ..

لم يكـن الإنسـان يلُوكهـا بلسـانه، ولا يخطُّهـا ببنانـه ثـم يتمطَّى وينام. بل كان يمارسها، ويعيشها، ويحياها ..

وإن أروع آيات الإنسان حقاً هـى أنـه عـاش دائمـاً هـذا المبدأ"الأمرلنا"وهـو لم يعِشْـه متبذِّخـاً بـه ولا مُتلهِّيـاً، بـل جـادًا، ومُعانياً، ومكابداً ..

فلكى يكون الأمر له يجب أن يستمتع بأهلية راشدة تمكنه من حيـازة الأمـور..وهـذه الأهليـة لاتُبـاع فيشـتريها، ولاتُـدرك بالحظوظ النائمة .وإنما بشَحْذ كل ما آتاه الله من موهبة وقدرة، ولقد فعل، وعن طريق التجربة..والتجربة وحدها..مضـى يُباشـر جُهده النبيل الجليل،بانياً نفسه،مكتشفاً دوره، مختاراً مصيره .

ومذ كان يسكن الغابة والكوخ، إلى اليوم الذى أطلق فيه

صواريخه نحو الكواكب العُلَى، تُنْبِئها بقرب قدومه ...

من ذلك اليوم البعيد مُنتهى البعد، حتى أيامه التى يعيشها الآن وهو يُجَابِهُ بعزمه الجَسُور مشكلات ضخمة تناوئه، وتريد أن تَدْحض حقه، وتَقِف مسيره ولكنَّ إيمانه بأن الأمر له، كان يُفرغ فى ذكائه من التوفيق، وفى يديه من القوة ما يجعل الصعب سهلاً، والخطر متعة، والمستحيل ممكناً ..

ولقد حذِق الانسان هذا الدرس، وأجاد حمل تبعاته ..

وأكثر أبناء جنسه ونوعه تفوقا فى الحياة هم ـ دائماً ـ الذين حذقُوا معه ذلك الدرس العظيم ..

هم الذين يتواصَوْن بالحق المشترك بينهم، مؤمنين بأن الأمر لهم، وبأن المسئولية مسئوليتهم، وبأن المصير مصيرهم ..

هم الذين يقدرون على أن يُحدِّدوا..وعلى أن يختاروا.. وعلى أن يَمضوا، ويُنجزوا .

ونفس الطريق الذى سلكه الانسان لِيُنشئ"مشيئته المختارة"هو الذى لامعدلِ عنه لكل جماعة إنسانية تريد اللحاق بموكب الانسان أعنى الخبرة ، والتفكير ..

أعنى مُعاناة التجربة مُعاناة كاملة..وإدراك مدلولها إدراكًا صادقا.. واختيار الموقف الذى توحى به التجربة والادراك.

وفى تقرير المصاير البشرية جميعها - السياسية، والعلمية، والاجتماعية، يجب أو ينبغى أن يكون هذا هو السبيل ...

* * *

ويجب، أو ينبغى ألاَّ يكون الخطأ سبباً فى التخلّى عن التبعية بحال ..

وما دمنا - نحن البَشَرِ - نختار حياتنا، ونختار مصيرنا، فلا بد أن تكون مادّةَ الاختيار بين أيدينا.، وأن يكون معنا من الطمأنينة القَدْر، الذى يسمح لنا بالتصرف وبالمناقشة .

أى لابد أن نعرف كل شئ عن حياتنا، وكل شئ عن مصيرنا .

وحياتُنا، هى عقائدنا، ومؤسَّسَاتُنا .

هى تجاربنا، وكفاحنا ..

هى آلامنا، وآمالنا ..

هى لَهْوُنا، وجِدُّنا ..

وبعبارة واحدة، هى كل ضُروب نشاطنا الإنسانى .

ومصيرنا، هو الطريق القويم الذى تتحقق عليه أغراض وجودنا .

فلكى ننظم هذه الحياة، التى هى حياتنا .

ولكى نستقبل ذاك المصير، الذى هو مصيرنا، ينبغى أن يُوضع كل شئ يتعلق بهما بين أيدينا ، وتحت أعيننا،وتفكيرنا، واختيارنا ..

إن حرية الاختيار تمثل اليوم فى حياة البشَر"مركز التنفس".

ـ ولئن كانت كذلك فى كل وقت، إلا أنها اليوم أكثر، وأخطر فقديمًا، كان اختيار جماعة ما، أو أمة ما، يُؤثِّر فى حياتها أولاً، وبالذات..ثم لاينتقل هذا الأثر إلى المجتمعات الأخرى النائية إلا بعد زمن طويل يقتضيه بُعد الشُّقَّة، وندرة وسائل الاتصال..وعَبْر هذه الرحلة الشاقّة الطويلة، يكون الأثَر قد تقطعت أنفاسه، وتبددت وطأته ..

أما اليوم، فآثار التفكير والاختيار تنتقل بسرعة الضوء، مع وسائل شتّى قهرت الأبعاد والمسافات ..

أجل، تنتقل مع المذياع، والسينما، والصحافة، والكتاب.

وحين يختار شعب"رقصة"معينة لنفسه، نبصر هذه الرقصة ذاتها، وبعد بضعة أيام من اختراعها واختيارها، تملأ أركان الأرض وتتلَوَّى بها أجسام الملايين فى معظم البلاد والشعوب.!

فالاختيار فى عصرنا هذا لم يَعُدْ محَلياً. بل هو عالَمى

واسع النطاق - ومن أجل هذا تعظم تبعاته، وتكبُر مسئولياته ..

إنه يَفرض على الناس فى كل الأرض. أن يفكروا طويلا قبل أن يختاروا. وأن يعلموا أنهم لايختارون لأنفسهم وحدها، ولا بأنفسهم وحدها..وإنما يختارون للعالم كله، ويختارون أيضاً بتأثير من مزاج العالَم كله، وهذا يقتضى أن يكونوا وهم يختارون، على أكبر حظ من الوعى ومن القدرة على الاختيار .

وكل شعب من شعوب كوكبنا هذا، مدعو لمعاناة تجربة التحديد والاختيار، مهما تكن تكاليفها ومشقاتها وإلا وَضَع نفسه مختارًا تحت الوصاية..وسبّب للبشرية كلها نقصاً فى نفوذها ـــ ذلك أن النفوذ الإنسانى هو ثمرة الإرادة..والإرادة الإنسانية تشكلها إرادات الرُّشْد التاريخى والجماعى لكل أمم الأرض وشعوب الإنسان .

واختيار كل أمة لنفسها، لن يعنى التفسُّخ، والتشتُّت، والفرُقة بين أبناء عالمنا الواحد. فالتطور الإنسانى يَعى نفسه تماما. ونحن إذ نمضى فى مساره، إنما نستهدى بوعيه، ونتأثر به، ويناديناً بمجاله المغناطيسى، فنلبى نداءه ..

وكلما اتسع تطورنا هذا لمزيد من الوعى، ومن الفكر، ومن الثقافة ـــ كثرت نقاط الالتقاء والتجمع بين الجماعات

الإنسانية كلها ويتم التجمع بين جماعات قوية واعية ناهضة، حين تكون جميعًا قد مرَّت بتجربة الاختيار، وكوّنت لنفسها تلك الشخصية الحرة المستقلة النامية التى يثمرها الاختيار .

وهكذا يتجلَّى ظهور الإنسان فينا على نَسَق باهر عظيم.

* * *

وكما نادينا فى الفصل السالف بمبدأ "الثقافة الكافّة" نادى هنا بمبدأ "الاختيار للكافّة" ..

لقد قلنا: إن عصر "الثقافة للصفوة" قد انتهى..أو بدأ ينتهى، وعلينا أن نُعجِّل بنهايته ..

ونقول: إن عصر "الاختيار للصفوة" يواجه نفس المصير وينبغى أن يواجهه .

والكنّاس، كالفيلسوف فى الميزان ..

ولاينبغى أن نعطى عبقرياً حق الاختيار، ثم نحرم أباه الذى كان حطابًا، أو من غمار الناس..فهذا الأب المغمور، هو الذى حمل فى صُلْبه وَلَده العبقرى أو العظيم، وهو الذى أوصل إليه ميراث العبقرية، ومَنَحه وُجوده .

ثم إن الاختيار، ليس عملاً من أعمال الترف والصَّلَف حتى يكون وقفاً على الخاصة، بل إن له وظيفة أسمى وأجلّ،

ووظيفته هذه تجعل أمر تعميمه واجباً مفروضًا. فوظيفة الاختيار الحقة هى :

أولاً: ترشيد الوعى الإنسانى .

ثانياً:الكشف عن الإرادة الكلية للجماعة الإنسانية .

لنفرض أننا دعونا سكان الكرة الأرضية جميعاً للاشتراك فى استفتاء حر،تتبين عن طريقه رأيهم فى الحرب وفى السلام..

ولنفرض أنهم جميعاً، أو معظمهم رحَّبوا بالحرب، ورأوا فيها علاجا لآلام الحرب الباردة، وحرب الأعصاب القائمة .

إن هذا الرأى - لاريب - فاجعة وبيلة..لكن الكشف عنه عمل عظيم ..

فهذا الكشف دلّنا على"إرادة كلية"للناس لم يكونوا يعلمونها..وهذه"الإرادة الكلية"تشكّل خطراًداهما..هى وإن تك يوماً فى حالة كمون،فإنها فى يوم آخرستعلن عن نفسها لامحالة.

وإذن فمن الخير العظيم أن نعرفها، ونكتشفها ونتتبع مَأْتاها، ونلوى زمامها ..

والإرادة الكلية حين تتكشف وتتبدّى، نَأْمَن عَثارها مهما يكن الخطأ الكامن فيها، لأن وُجوه الرأى السديد سرعان ما تُجنّد نفسها لتقويم العِوَج، وإِحكام الاتجاه .

والوعى الإنسانى لايفقد أبدًا، مَن يَضع أُصبعه على مصباح الحقيقة فيضيئه له، حتى لو يكون طفل. "هانس أندرسون" الذى كشف عُرْى الامبراطور، وفضح"نسَّاجى صاحب الجلالة"وردّ للجُمُوع الجبانة المخدوعة شجاعتها وعقلها، حين صاح بينها:"إن الامبراطور عُريان"..فإذا الناس يُقبل بعضهم على بعض يتهامسون، ثم يتصايحون: "أجل..إنه عُريان..إنه لَعُريان".!!

وإذا كان تَبيُّن الإرادة الكلِّية للناس حَتْميا،حتى حين تمثل هذه الإرادة خطَلاً وخطأ، فكم تكون حتميته، والإرادة الكلية خير عميم.؟؟

أجل، إن الإرادة الكلية للبشَر لاتجتمع على ضلالة، لأنها جُماع ما فى البشرية من ذكاء، ووعى، ورغبة فى التفوق، وإصرار على النهوض..ونحن فى الحقيقة لَسْنا بكثير حاجة إلى تبيُّن وجهتها ومقصدها، فوجهتها معروفة بالبديهة وهى المُجاوزة الدائمة، وتخطّى الحَسن إلى الأحسن باستمرار ..

لكْن ما نحن بحاجة إلى تبينه دائمًا، هو الطريق، والوسائل التى تتوسّل بها هذه الإرادة لبلوغ وجهتها، وتحقيق غرضها .

فالوسيلة مرنة ومتغيرة.ولكل عصرٍ وسائله المناسِبة،

ونُظُمه ومناهجه، ومؤسّساته الملائمة ..

وهنا المَجال الحيوى الفسيح للاختيار .

وهنا كذلك التَجْلى الحقيقى لإرادة الإنسان .

* * *

كان القديس"أوغسطين"حين يُسأل عن سرّالزمان يجيب:

"إنى أعرف الزمان إذا لم يسألنى عنه أحد ..."

"أما حين أحاول تفسيره للسائل فأنى أجهله ..."

ولقد بقى الاختيار كمشكلة فلسفية؛ يتخذ فى الأذهان صورة كصورة الزمان فى ذهن أوغسطين ..

حدث هذا، ولايزال يحدث عندما نناقش"الاختبار"من حيث صلته بالقضاء والقدر ..

أما حين نطرحه ـ كما قلنا من قبل ـ باعتباره ضرورة إنسانية عليها أن تحقق نفسها فى العالم الخارجى، وباعتباره حقيقة تاريخية تتبدَّى سافرة واضحة فى الحركة الإنسانية كلها، صغيرها وكبيرها؛ فحينئذ يكون موقفنا الفكرى منه واضحاً، ولانجهل من حقيقته، ولامن دَوْره شيئا ..

إن قصة الحياة كلها،هى قصة الاختيار الإنسانى، فى حريته الخالقة ..

وبعـــــد ...

... الآن يبلغ الكتـاب تمامـه، وتُشْرِف هـذه الصفحـات على غايتها فهل فرغ حديثى عن الإنسان .؟؟

إذا كان تصوُّرى لعظمته، ولمستقبله، سيُصِرُّ على أن ينقل نفسه، ويُعبِّر عنها فى صحائف مكتوبة، فما أكـثر مـا أحتـاج ـ إذن ـ إلى كُتب تَروى هذا التصور الغَدَق المفيض ..

على أنى سـعيد بنعمـة الله علـىّ فـى هـذه العُجالـة التـى ضمَّنتُها علاقتى بالإنسان ..

ولسوف أظل أذكر لهذا الذى أنبته الله من الأرض نباتـاً، ثم سوَّده عليها، واستخلفه فيها..سوف أظلّ أذكـر لـه كدحـه، وشقاءه، وأخطاءه، أكثر مما أذكر له فوزه، ومباهجه، وذكاءه.

أى أنه مِن حيث يتشاءم كثيرون، وينفضُّون عن الإنسـان فى جزَع أليم، سأنشر أنا شراع تفاؤلى، وأُقبل على الإنسان فـى ثقة سابغة، وفى ولاء كريم ..!!

ذلك أنى ـ فيما أحسب ـ قد عرفـت مـا هـو..وأدركـت من فداحة عبئه، وثِقَل حِمْله، وجَسامة مسعاه، وعظمة دَوره مـا منحنى اليقين العذْب بنُبل خطاياه، وجلال مزاياه، ويُمْـن أيامـه، ومَجْد زمانه.

وأحسـب أن هـذا واجبنـا جميعـاً نحـو الإنسـان، أفـرادًا،

وجماعات وأُمماً ..

ينبغى أن نثق بالإنسان، ونطمئن إلى مصيره، وينبغى أن يكون جهادنا ـ دائماً ـ مرتبطاً بجهاده ومتمما له.وأن نتحرَّى مشيئته ونعمل وَفقْها .

لقد قرأنا كثيراً عن تاريخ الإنسان.ووقفنا عنده طويلاً .

أفينبغى لهذه الوقفة أن تدوم .؟؟

كلا، وإنما واجبنا أن نتقدم لِنُسْهم فى بناء هذا التاريخ بعزيمة أقوى، وثقة أتم، وولاء أكثر .

وذلك يقتضى أن يأخذ كلٌّ مكانه بين الصفوف الزاحفة.

ويدفعُ كل كِيانه الصغير داخل الكيان الكبير ..

علينا أن ننقل الإنسان إلى حياتنا،ونملأها برُؤاه وبإصراره.

وعلينا أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره، وكأننا نبصر هذا المستقبل وذاك المصير .

وبقدر ما تحمل عزائمنا من تفاؤل، سيكون جَمال كفاحنا، وستكون عظمته .

لنثق تماماً، أن هذه الأرض لن تشهد يوماً ما، جنازة الإنسان..

فالإنسان الذى قضى ملايين السنين فى أحضان التطور

لكى يبلغ الرُّشْد الذى يبدأ منه رحلته الجادّة الصاعدة، لن يقضى نحبه حين تدق ساعة رُشده وتبدأ بشائر عصوره..ولقد دقت الساعة وأهلّت البشائر ..

ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة، فسيعمل الإنسان داخل هذا الألف.، أو هذه المائة ..

وإذا لم يبق من نوعه إلا عشرة، فسيعمل مع هذه العشرة.

وإذا لم يبق إلا واحد، فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد..

وإذا فنى هذا الواحد أيضاً، فسيكمنُ الإنسان داخل "أميبا" يهرب بها من الفناء، ويبعث من داخلها نفسه مرة أخرى، وينشر وجوده وحياته ورسالته من جديد .

لنؤمن بهذا جيدًا ..

ولنثق بأن خليفة اللهِ هذا.، سيبلغ من أمره ما يريد .

كتب المؤلف

١- من هنا . . نبدأ .

٢- مواطنون . . لا رعايا .

٣- الديمقراطية ، أبداً . .

٤- الدين للشعب .

٥- هنا . . أو الطوفان .

٦- لكي لا تحرثوا في البحر .

٧- لله ، والحرية (ثلاثة أجزاء)

٨- معاً على الطريق محمد والمسيح

٩- إنه الإنسان .

١٠- أفكار في القمة .

١١- نحن البشر .

١٢- إنسانيات محمد .

١٣- الوصايا العشر .

١٤- بين يدي عمر .

١٥- في البدء كان الكلمة .

١٦- كما تحدث القرآن .

١٧- وجاء أبو بكر .

١٨- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره .

١٩- كما تحدث الرسول (مجلد) .

٢٠- أزمة الحرية في عالمنا .

٢١- رجال حول الرسول (مجلد) .

٢٢- في رحاب علي .

٢٣- وداعاً .. عثمان .

٢٤- أبناء الرسول في كربلاء .

٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز

٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول .

٢٧- . . والموعد الله .

٢٨- خلفاء الرسول (مجلد) .

٢٩- الدولة في الإسلام .

٣٠- دفاع عن الديمقراطية .

٣١- قصتي مع الحياة .

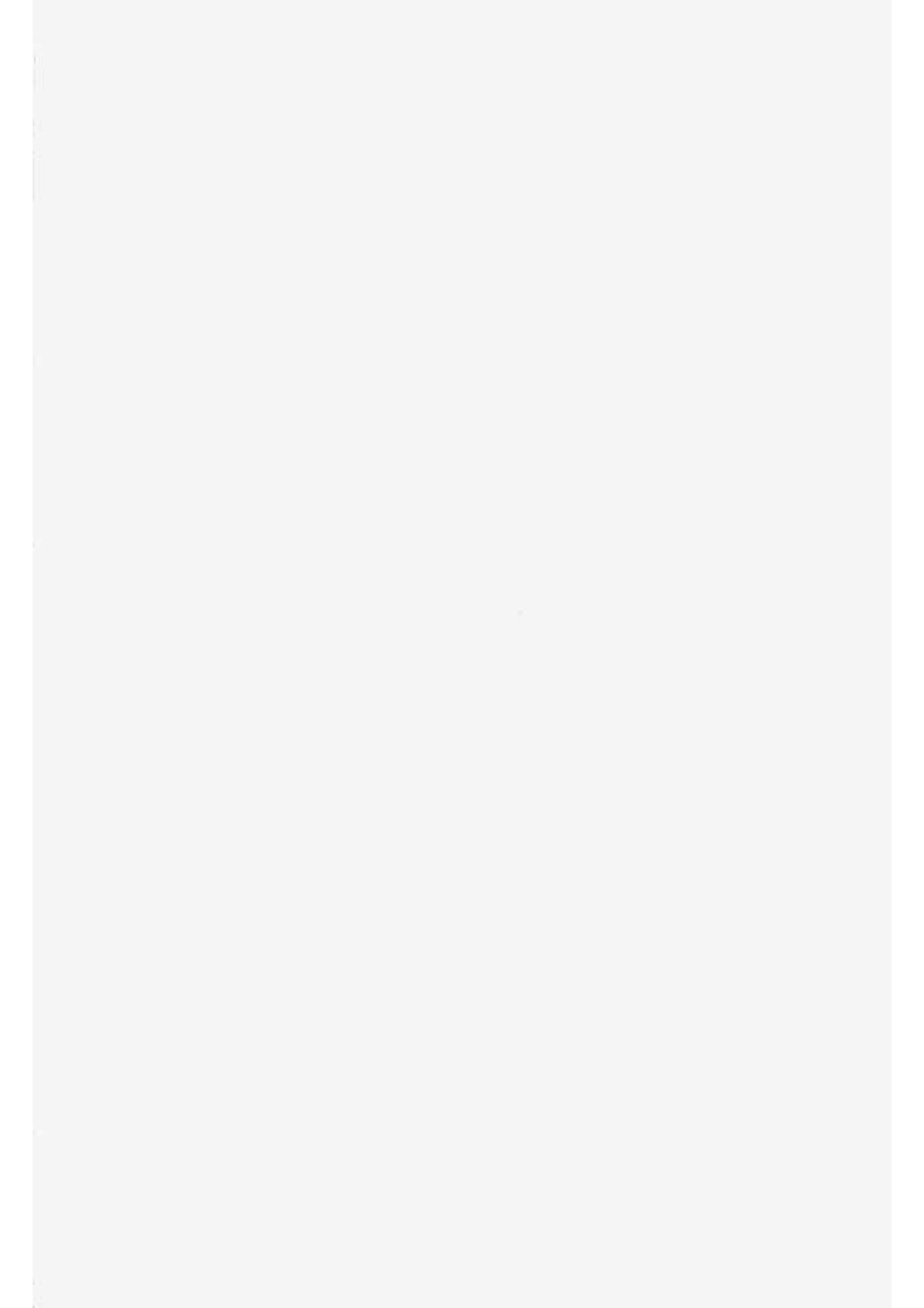
٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت . .

٣٣- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)

٣٤- الإسلام ينادي البشر

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع

رقم الايداع ٨٨٢٦ / ٩٧
الترقيم I.S.B.N
977 - 5732 - 08 - 5





*هذا الكتاب ليس قصيدة تحكى أمجاد الإنسان وتُردد مفاخرة..

*هذا الكتاب جهد متواضع، يتقدم على استحياء بين الجهود الكبار العاملة من أجل اكتشاف الإنسان .. اكتشاف حقيقته، واكتشاف مشيئته .. واكتشاف الفرص الواجب توفرها له كى يبلغ كماله الميسور، ويدرك مجده القادم..

خالد محمد خالد



٥٠ ش الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة